



الجمهورية الجزائرية الشعبية الديمقراطية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي -



كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

كلية العلوم الإنسانية

تاريخ الجزائر الحديث ما بين القرنين (19-16م)

السادسي: الثالث

المستوى: السنة الثانية - تاريخ عام -

2023-2022م

مقدمة

مقدمة

إن مطبوعة "تاريخ الجزائر الحديث بين القرنين الـ 16-19م" موجّهة إلى طلبة السنة الثانية تاريخ عام، حيث تعالج الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الجزائر العثمانية، ذلك أن تاريخ المنطقة قد شهد تقلبات سياسية وثورات اجتماعية جعلت الجزائر دوماً على نار متأججة طيلة ثلاثة قرون كاملة حيث لم تكن تنتهي ثورة حتى تقوم أخرى، ولا ينصّب داي إلاّ وقد قتل الذي قبله أو عزل، حتى أن الداوي الذي كان يموت موتة طبيعية يُصبح قبره مزاراً للتبرّك¹، ويذكر هابنسترايت أنّه "شهد مقتل ستة دايات في يوم واحد"¹، في حين يؤكد موريس لوكلارك: "أن خمس دايات قتلوا تباعاً في يوم واحد سنة 1700م، ودفنوا في نفس المكان جماعة"².

وهكذا فإنّ كثرة الأحداث واتصالها ببعضها البعض قد جعلني أقبل على اتباع سبيل الاختصار لإنجاز هذه المطبوعة، ذلك أن كثرة المواضيع وتتابعها جعل من المستحيل إنجاز عمل أكاديمي يشمل جميع التاريخ الجزائري خلال العهد العثماني؛ خاصّة وأنّه موجه لطلبة في بداية مسارهم الدراسي لعلم التاريخ.

وقد قسمت العمل إلى ثماني محاضرات، عنونت أولها بـ"الغزو الإيبيري للمغرب العربي 1492_1510م"، فتطرقت فيها إلى سقوط غرناطة وبداية التوسع الإسباني والبرتغالي في المغرب والجزائر وتونس وطرابلس، ثم تناولت في المحاضرة الثانية وصول الأخوين عروج وخير الدين إلى تونس سنة 1510م، واتصالهم بأهل الجزائر وتحرير جيجل والجزائر العاصمة وبعض الثغور الأخرى، فالحاق الجزائر بالدولة العثمانية سنة 1519م.

¹ هابنسترايت، رحلة العالم الألماني إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م، تر. ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، الطبعة الأولى، 2008 ص31.

² Maurice le Clercq, Le Tombeau des Cinq Deys d'Alger, Légende Algérienne, Imprimerie Daix Frère, 1888, p5-20.

كما عالجتنا في المحاضرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة تطور نظام الحكم في الجزائر حيث أفردنا لكل محاضرة نظاما معيّنًا، فجاءت المحاضرة الثالثة لتعرض عهد البايبريات والرابعة لعهد الباشاوات والخامسة لعهد الأغوات أما المحاضرة السادسة فخصت لعهد الدايات. في الوقت الذي تناولت فيه المحاضرة السابعة طبيعة المجتمع الجزائري، فأرخت لعاداته وتقاليده ولباسه ومأكله ومشربه وتركيبته الاجتماعية، ثم تناولنا في المحاضرة الثامنة والأخيرة من المقرر " التعليم والمؤسسات الثقافية".

ولعلّ من الصعوبات والعوائق التي واجهت عملية إنجاز هذه المطبوعة هو شساعة المقرر وصعوبة التحكم في محتوياته ونقله إلى الطلبة في شكله المختصر دون الوقوع في فخ الاسهاب أو الاطناب ومحاولة تغطية جميع حقب الفترة الحديثة من التاريخ الجزائري.

ولأنّ هذه المطبوعة لم تجب على جميع التساؤلات، فقد ارتأينا توجيه الطلبة إلى بعض المصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع، وكذا تقديم بحوث وشروح في الحصص التطبيقية من أجل تدارك النقص الذي نتج عن اتساع نطاق البحث.

محتويات المقرر

السداسي: الرابع.

عنوان الوحدة: التعليم الأساسية.

المادة: تاريخ الجزائر الحديث ما بين القرنين (16-19م).

أهداف التعليم:

- تمكين الطالب من معرفة تاريخ الجزائر في ظل الحكم العثماني.

المعارف المسبقة المطلوبة:

- يدرك مدى تأثير الحضارة الأندلسية والمشرقية في تطورات المغرب الحديث، فضلا

على معرفته نظم الحكم في المغرب الاسلامي من السعديين، العلويين، والحفصيين.

محتوى المادة:

- الغزو الإيبيري للبلدان المغاربية.

- التطور السياسي للجزائر في العهد العثماني.

- العلاقات الدولية للجزائر في التاريخ الحديث.

- الدولة والمجتمع في الجزائر أثناء الفترة العثمانية (نظام الحكم، الاقتصاد، الأوقاف،

التعليم، الزوايا، التنظيم الاجتماعي).

طريقة التقييم:

- علامة الأعمال الموجهة %50 + الامتحان %50.

المراجع: (كتب ومطبوعات، مواقع انترنت، إلخ

الماضرة الأولى

الغزو الإيبيري للمغرب العربي أواخر ق 15 م ومطلع ق 16 م.

1- الصراع السياسي في دول المغرب العربي 1492-1500 م.

2- أسباب الاحتلال الإيبيري للمغرب العربي.

3- الاحتلال البرتغالي والاسباني لمناطق المغرب العربي.

لقد شهد سقوط غرناطة في يد الإسبان سنة 1492م، بداية لعهد جديد من التوسع الأيبيري على منطقة المغرب العربي، "قبعده الانتهاء من طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية راح البرتغاليون تحت قيادة جون الثاني والإسبان بقيادة إيزابيلا وإكسيميناس، يفكران في اقتسام ثروات المغرب العربي الذي يعيش حالة من الفوضى والصراع السياسي".¹

وفعلا بدأ التوسع الأيبيري باكرا في المغرب الأقصى، تلتها الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، حيث أن الكثير من المناطق إما أصبحت ملكا للإسبان بقوة السلاح أو برضوخ حكامها للمحتل وقبول دفع الجزية، مثلما وقع مع كل من تنس والجزائر العاصمة.

1- الصراع السياسي في دول المغرب العربي 1492-1500م:

كان المغرب العربي مقسما بين ثلاث دول هم: المرينيون في المغرب والزيانيون في الجزائر والحفصيون في تونس، حيث حكم الزيانيون الجزائر لقرون وذلك إلى غاية سقوطها سنة 1554م.

لقد خضعت الجزائر في البداية لحكم الدولة الموحدية "التي توسعت في بلاد بني واماتوا ووبني يلومي وبنواحي وادي میناس وأحوار غليزان"²، لكنها وما إن بدأت في الانهيار حتى سارع حكام الدولة الزيانية إلى الاستقلال بأنفسهم والسيطرة على المغرب الأوسط، ولم يكن هذا الاستقلال إلا بداية لتفكك المغرب العربي إلى دويلات استقلت بنفسها عن سلطة الموحدين، ثم سرعان ما أصبحت دولا متقاتلة فيما بينها، حيث حاول المرينيون والحفصيون مرارا احتلال الجزائر وإحاقها بدولتهم، فاحتل الحفصيون بجاية وقسنطينة والزاب.

¹ Archibald Cary Coolidge, The European Reconquest of North Africa, Te American Historical Review , Jul., 1912, Vol. 17, No. 4 (Jul., 1912), p727.

² عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المطبعة العربية، الجزائر، 1955م، ص115.

لم يتجاوز امتداد الدولة الزيانية الفعلي مدينة تلمسان وساحل البحر، في حين كانت المناطق الجزائرية الأخرى عبارة عن إمارات ودويلات مستقلة، مثل: مدينة تنس، والجزائر العاصمة التي يحكمها الثعالبة -سالم التومي- تحت نظام الجماعة، ومملكة كوكو تحت سلطة ابن القاضي بالإضافة إلى هضاب التيطري، ومليانة... إلخ.

وأما سلطة الحفصيين "فقد امتدت لتشمل الجزء الشرقي من الجزائر، مثل: قلعة بني عباس وإمارات أخرى راوحت مكانها فمرة تستقل لنفسها بالحكم وتارة أخرى تدين بالولاء إما للزيانيين أو الحفصيين، مثل "إمارة بني المهلهل، وإمارة عائلة بوعكاز التي تمثل العرب الذواودة في الزاب والحضنة وبعض جهات الصحراء، وجهة حمزة وقبائل صنهاجة،¹ غير أنها ومثل باقي الدول المغاربية "سرعان ما آلت إلى التفكك تدريجيا بداية من سنة 1400م، وحلّت مكانها دويلات صغيرة استولت على معظم الموانئ الكبيرة في المغرب العربي، مثل طرابلس والجزائر وبجاية".²

وأما في الجهة الغربية فقد كان المغرب الأقصى تحت سلطة بني مرين، الذين استقلوا هم بدورهم عن الدولة الموحدية، وأحكموا قبضتهم على إمارة فاس ومراكش، في حين انفصلت إمارة سجلماسة تحت قيادة بنو معقل، وأما الوطاسيون فقد حكموا سلا والرباط.

¹ أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1968، ص94.

² ياتسيك ماخوفسكي، تاريخ القرصنة في العالم، تر.أنور محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م، ص77.

وما إن أتت سنة 1472م حتى استولى الوطاسيون على فاس ونصّبوا أنفسهم حكاما جددا على المغرب الأقصى عامّة معلنين نهاية دولة المرينيين في المغرب، حيث أطلق الملك المغربي على نفسه لقب "السلطان" وفي أحيان أخرى "أمير المؤمنين".

وقد صاحب هذا التدهور السياسي انفلات ثقافي خطير، حيث يذكر الوزان بقوله: "إن القصر الذي كانت فيه خزانة الكتب في مراكش، أستعمل منه جناح للدجاج وآخر للحمام وأصبحت الخزانات التي توضع فيها الكتب، ألقاها لهذه الطيور... في حين أن إحدى المدارس الكبرى التي كان بها عدد هائل من الطلاب هي اليوم مجرد مدرسة صغيرة لا يتجاوز عدد طلبتها الخمسة، حيث يدرّسهم أستاذ جهله بالفقه فاحش، ليس له سوى معرفة سطحية غامضة بالآداب، وأقل من ذلك بالعلوم".

وهكذا فالمغرب العربي كان يشمل منطقتين متباينتين هما: منطقة تخضع للحكومات الواهية التي كانت تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة، فبنو حفص بتونس يحكمون نظريا البلاد التونسية وطرابلس، وفيهم فرع آخر يحكم شرق البلاد الجزائرية، بجاية وقسنطينة والزاب، في حين يحكم بنو مرين الوطاسيون المغرب الأقصى إلى مدينة وجدة، وأمّا بنو زيان التلمسانيون فيحكمون نظريا ما بين ذلك، غير أنّهم لا يحكمون عمليا إلا ضواحي تلمسان وساحل البحر إلى مقربة من مدينة الجزائر، وتقع بقية البلاد الوسطى والجنوبية تحت سلطة إمارات قبلية...¹.

2- أسباب الإحتلال الأيبيري للمغرب العربي:

- ضعف السلطات المغاربية سياسيا وعسكريا، ما جعلها في حالة لا تسمح لها بالدفاع عن ثغورها وسواحلها.

¹ كورين شوفالييه، الثلاثين سنة الأولى من قيام مدينة الجزائر، تر. جمال حمادة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007م،

- الروح الصليبية وسيطرة الكنيسة على السياسة حيث انعكس هذه الروح على حكامها الذين أعلنوا حربهم ضد كل ما هو إسلامي في المغرب العربي، حيث سميت هذه الحروب بـ "حروب الإسترداد أو Reconquista، أي أن كل ما يقع على سواحل شمال إفريقيا هو إرث للإمبراطورية الرومانية، ويجب إستعادته من قبل المسيحيين الأوربيين¹، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد "ذهب البرتغاليون إلى أبعد من ذلك حينما فكروا في القضاء على الإسلام نهائياً، وذلك من خلال احتلال منطقة الحجاز ومكة المكرمة، فقادوا حصاراً على مدينة جدّة التي لا تبعد سوى 79 كلم عن مكة المكرمة سنة 1517م، بقيادة لوبو سواريز دي ألبيرغاريا غير أن القائد العثماني سلمان رايس تمكن من منعهم من الرسو على الساحل"².

- العمل على استغلال ثروات المنطقة خاصة تلك المتعلقة بالمنتجات الزراعية، وحتى بعض المعادن، مع العلم أنّ الاقتصاد الإسباني قد تضرر كثيراً نتيجة هجرة ساكنة الأندلس واستقرارها على سواحل المغرب العربي.

- اعتبر الملوك الإسبان أنفسهم القادة الحقيقيين للعالم المسيحي ولهذا فهم الورثة الشرعيون للإمبراطورية الرومانية، حيث سادت فكرة "ملك واحد ودولة واحدة"³، فأسس الإسبان إمبراطورية مسيحية وبدأوا توسعاتهم في كل من فرنسا وإيطاليا بالإضافة إلى المغرب العربي، فمنذ عهد الملكة إيزابيلا وفيرديناند ووصولاً إلى الملك شارل الخامس، كانت "الفكرة السائدة لدى الملوك

¹ ينظر: Vella Andrew.

² Meloy, J. L, Imperial power and Maritime Trade: Mecca and Cairo in the later Middle Ages, e Middle East Documentation Center, University of Chicago, 2010, p.223.

³ Norman Housley, Religious warfare in Europe, 1400-1536, New York: Oxford University Press 2002, p.78.

الإسبان هي أنهم المسؤولون عن طرد الأتراك والمورسكيين من الممتلكات الإسبانية واستعادة القسطنطينية والقدس من يد العثمانيين وتوحيد العالم على الديانة المسيحية".¹

- السعي للسيطرة على تجارة الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط، خاصة مع "أهمية الموقع الاستراتيجي الذي تزخر به المدن الساحلية الممتدة من طرابلس ووصولاً إلى المغرب الأقصى".²

- ادعى الإسبان أن سكان المدن الساحلية في منطقة المغرب العربي، وبخاصة بعد أن انضم إليها مسلمي غرناطة والاندلس عامة، أصبحت منطقة تتطلق منها الغارات البحرية ضد السواحل الإسبانية، مثل: مدينة وهران طرابلس الغرب وجربة وسلا وباقي مدن المغرب العربي.

3- الاحتلال البرتغالي والإسباني لمناطق المغرب العربي:

في الوقت الذي كانت الدويلات المغاربية غارقة في التناحر فيما بينها وتعيش انفصالاً بغيضاً، كان الإسبان والبرتغاليون قد بدأوا في احتلال المغرب العربي بمجرد سقوط غرناطة سنة 1492م.

وتعود أولى عمليات الاحتلال في المغرب العربي إلى الحملة الإسبانية على مدينة تطوان سنة 1400م، حيث يذكر أحمد توفيق المدني أن الإسبان "قد احتلوا مدينة تطوان وأثخنوا فيها القتل حتى ذهب البعض إلى أنهم قد قتلوا نصف أهل المدينة، وساقوا الكثير من رجالها ونسائها أسرى إلى إسبانيا، في الوقت الذي كان فيه ملك المغرب أبو سعيد عثمان يحارب مملكة بني

¹ قرياش بلقاسم، الأسرى الأوربيين في الجزائر خلال عهد الدايات 1671-1830م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2016م، ص18.

² دوالي خديجة، الغزو الإسباني على السواحل الجزائرية (911-917هـ/1505-1511م)، مجلة القرطاس، ع.06، جوان 2017م، ص26.

زيان بتلمسان¹، وفي سنة 1438م اتجهت الحملات الصليبية إلى طنجة وتطوان على الساحل، وامتد نفوذ الإسبان إلى أن بلغ مدينة مراكش نفسها، بهدف شطر المغرب الإسلامي عن الأندلس، مما يؤكد تغلغل الروح الصليبية في الإسبان والبرتغاليين، الذين كانوا ينسقون مع باقي الدول الصليبية عن طريق البابا²، وفي سنة 1497م قاد بيدرو إيستونيان حملة عسكرية لاحتلال مليلية بأمر من الملكة إيزابيلا وفيرديناند وتمكن من احتلالها³، رغم أن السكان راحوا يستجدون بسلطان فاس الذي لم يرسل لمساعدتهم سوى خمسمائة مقاتل، الأمر الذي جعل السكان يقررون في النهاية مغادرة المدينة، وبعد فترة قصيرة احتل الإسبان مدينة رساغة وجعلوا عليها حامية إسبانية⁴، كما أرسلت حملة لاحتلال وهران والمرسى الكبير سنة 1497م تحت قيادة دوق المدينة سيدونيا، غير أن هذه الحملة عادت خائبة دون أن تحقق أهدافها⁵.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ففي الجانب الآخر احتل البرتغاليون سبتة سنة 1415م واستولوا على آزمور سنة 1468م، كما احتلوا المرسى الكبير سنة 1471م ولم يغادروه إلا سنة 1477م، ثم أقاموا مؤسسة تجارية في وهران سنة 1483م وأخرى سنة 1487م.

لقد اشتدت الحملات الصليبية الإحتلالية بمجرد سقوط غرناطة سنة 1492م، حيث راسل كاتب الملكين المدعو فيرديناند زافر الملك الإسباني يقول: إن البلاد [المغرب العربي] في حالة

¹ أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص 66.

² محمد مورو، بعد 500 سنة من سقوط الأندلس الجزائر تعود لمحمد صلى الله عليه وسلم، المختار الإسلامي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1992م، ص 16.

³ De Jamil M et Alt, A History of the Maghrib in the Islamic Period, Cambridge University Press, 1987, p146.

⁴ Ernest Mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale (Berberie) depuis les temps les plus recules, jusqu'à la conquête française (1830), T2, Paris, Ernest Lourex éditeur, 1868, p417.

⁵ Henri-Leone Fery, op.cit, p56.

بحيث يبدو أن الرب يريد أن يهبها لصاحبي الجلالة¹، كما كانت آخر وصايا الملكة إيزابيلا وهي على فراش الموت -12 أكتوبر سنة 1504م- كالآتي: "إنّي لأدعو بإخلاق ابنتي والأمير زوجي، أن يكونا المعين الأكبر لكل تلك الأمور التي تتعلق بالربّ والعقيدة المسيحية اقتداء بالملوك الكاثوليك، ولهذا فعليهما ودون أي تأجيل احتلال البلاد الإفريقية، ومحاربة الكفار من أجل رفع راية الدين"².

وهكذا بدأ عصر جديد من عملية الغزو لدول المغرب العربي، ولإنهاء الصراع الإسباني البرتغالي توصل الطرفان إلى اتفاق انتهى بتوقيع معاهدة "تورديلاس بتاريخ الـ 07 جوان سنة 1494م، أين تمّ بموجبها تقسيم العالم إلى منطقتي نفوذي بين الإسبان والبرتغاليين، حيث تعود الأراضي التي تقع في الجهة الغربية من جزيرة الرأس الأخضر للاحتلال الإسباني، أما تلك الواقعة في الجهة الغربية فهي ملك للبرتغاليين"³

أرسل الإسبان في البداية جواسيس إلى منطقة المغرب العربي، ففي سنة 1493م قام ليزكانو ولورينزو دي زافرا برحلات تجسسية إلى سواحل المغرب الأقصى، وأقام لورينزو دي باديليا حاكم أنتيكبيريا في زيّ تاجر مغربي في تلمسان مدّة سنة كاملة يسعى إلى تقصي وضع المغرب الإسلامي.⁴

غير أن وفاة الملكة إيزابيث سنة 1504م، جعل فيرديناند الطامح إلى توسيع الوجود الإسباني في البحر المتوسط يعدل عن الفكرة ويقرر بناء إمبراطورية إسبانية تمتد في إيطاليا،

¹ صالح عباد، مرجع سابق، ص 26.

² Henri-Leone Fery, Histoire d'Oran, Avant, Pendant Et Après La Domination Espagnole, Oran, Typographie Adolphe Perrier Éditeur, 1858, p58.

³ Frances Gardiner Davenport, European Treaties bearing on the History of the United States and its Dependencies to 1648, Washington, Institution of Washington, 1917, p171.

⁴ صالح عباد، مرجع سابق، ص 27.

في حين يقتصر الوجود الإسباني في المغرب العربي على حاميات تفرض على دوله ومناطقه دفع الضريبة وإعلان الولاء للإسبان.¹

وفي المقابل كان لتنامي التجارة البرتغالية في وهران مصوغا للملك البرتغالي من أجل إعطاء موافقته على فكرة قيادة حملة جديدة ضد المرسى الكبير سنة 1501م، غير أن سوء الأحوال الجوية حال دون إنزال الجيش البرتغالي لمدة ثلاثة أيام كاملة، حيث سمحت هذه المهلة للسكان المحلية الاستجداد بأهل القرى والمدن المجاورة، حيث تمكنوا في النهاية من هزم القوات البرتغالية ودحرها.

وجه الإسبان بعدها حملة على المرسى الكبير عام 1505م، أين تم تجميع أسطول كلف السلطات الإسبانية 3000 أيكّة ذهبية،² تكوّن من 170 سفينة حربية في ميناء ملقة، على متنه سبعة آلاف جندي إسباني، في حين أوكلت مهمة قيادة الحملة إلى قائد البحرية رامون دي قرطبة، أما الجيش فسلمت مقاليدته لدييغو فيرنانديز دي قرطبة³، وقد غادر الأسطول ملقا بتاريخ الـ 09 سبتمبر سنة 1505م، وبلغ السواحل الجزائرية في 10 من نفس الشهر⁴، حيث بدأ الهجوم في مساء ذلك اليوم، "ولأنّ المدافعين لم يتجاوز عددهم خمسمائة مجاهد، فإن المدينة سقطت في أيدي الإسبان في وقت قصير"، ويذكر ديغرامون قائلاً: "لقد قاوم الجزائريون بشجاعة عديمة الجدوى، فقد أجبرتهم نيران السفن على التراجع إلى الجبال، حيث احتل الإسبان

¹ Frances Gardiner Davenport, op.cit, p147.

² Henri-Leone Fery, op.cit, p59.

³ JESÚS BERMÚDEZ RAMIRO: Modulaciones rítmicas en la lírica latina. Las Odas de Horacio. Madrid: Ediciones Clásicas, 2007, p201.

⁴ De Gramont, Histoire d'Alger Sous la Domination Turque (1515-1830), Pris, Ernest Eroux Editeur, 1887, p06.

قلعة المدينة وجعلوا منها حامية لأنفسهم".¹ وما إن وصل الخبر إلى إسبانيا حتى أعلنت احتفالات الشكر والصلاة للرب ثمانية أيام كاملة.²

وكما كان متوقعا فإن احتلال المرسى الكبير لم يكن سوى بداية لحرب سيلقها الاسبان "بحرب الاسترداد"، أي استرجاع جميع الأراضي التي كانت تحت حكم الرومان في منطقة المغرب العربي، وهي بالنسبة لهم إرث مسيحي يجب ضمه إلى الإمبراطورية المسيحية الإسبانية الجديدة.

وهكذا وجه الاسبان أنظارهم نحو وهران، وبدأوا في التحضير للحملة حيث "غادر قائد حامية المرسى الكبير إلى إسبانيا والتقى هناك الملكة خوانا التي منحته خمسة آلاف جندي، وجميع التجهيزات الضرورية التي يحتاجها"³، وفي 06 جوان سنة 1507م فشل الإسبان في احتلال وهران رغم أنهم أثنوا القتل والسبي والأسر في أهلها، وفي نفس السنة تمكن يحيى الثابتي من احتلال تنس بإعانة من الإسبان"⁴، كما احتل بيدرو نافارو في السنة الموالية قلعة باديس.⁵

ورغم النجاح الذي حققه الاسبان باحتلالهم العديد من الثغور في المغرب العربي، إلا أن بالهم لم يهنأ ووهران حرّة طليقة، فخصص التاج الاسباني 39,6 مليون مرافيدي لاحتلال

¹ De Gramont, op.cit, p06.

² Ibid, p08.

³ De Gramont, op.cit. p11.

⁴ أحمد توفيق المدني مرجع سابق، ص109.

⁵ De Jamil M et Alt, p147.

المدينة، وهي مبالغ ضخمة إذا قورنت بالمبالغ التي دفعها الأسبان في احتلال القارة الأمريكية والتي لم تتجاوز قيمتها 14 مليون مرافيدي¹.

أبحرت الحملة من ميناء قرطاجنة بتاريخ الـ 16 ماي سنة 1509م، وعلى متنها 15 ألف مقاتل، حيث نزلت بميناء المرسى الكبير يوم 17 ماي ثم اتجهت نحو مدينة وهران؛ ورغم المقاومة التي أبداهها أهل وهران في مجابهة المد الأسباني، إلا أن الخائن اليهودي ستورا وبعض المتواطئين من أهل البلد قاموا بفتح أحد أبواب المدينة عن غفلة من المجاهدين، فاقترح الأسبان المدينة وفتحوا باقي الأبواب وأثخنوا في أهلها القتل، حتى امتلأت الطرقات بالشهداء، حتى قيل أن الكاردينال خيمينيس لم يستطع ضبط دموعه وهو يشاهد بشاعة المنظر².

وما إن انتهى الإسبان من وهران حتى جهّزوا حملة عسكرية جديدة بواسطة بيدرو نافارو لاحتلال بجاية، فغادرت القوات الاحتلالية إسبانيا بتاريخ الأول من جانفي سنة 1510م، ووصلت بجاية يوم الـ 05 من نفس الشهر، واحتلّوها رغم المقاومة التي أبداهها أهلها³.

قاد الإسبان في نفس السنة حملة لاحتلال طرابلس الغرب، وذلك بعد أن وقّعوا سلما مع ملك تلمسان يدفع بموجبه الضريبة للمحتلّ، حيث عين بيدرو نافارو على رأس جيش تكوّن من 15 ألف جندي، من بينهم 3 آلاف مقاتل من صقلية، واختير المالطي جويليانو أبيلا دليلا للحملة نظير معرفة الجيدة بالمدينة⁴.

¹ Ladero Quesada, Miguel Ángel, Las Indias de Castilla en sus primeros años: cuentas de la Casa de Contratación (1503-1521), Dykinson, 2008, p172.

² أحمد توفيق المدني، مردع سابق، ص111.

³ Robert Lambert Playfair . Handbook for Travellers in Algeria and Tunis, Algiers, Oran, Constantine, Carthage, Etc. J. Murray, 1887, p 33.

⁴ Vella Andrew P, "The Order of Malta and the defence of Tripoli 1530–1551", Melita Historica, Vol. 6, N. 4, 1975, P362.

غادر الأسطول مالطة بتاريخ الـ 20 جويلية سنة 1510، ووصل قبالة السواحل الطرابلسية في 24 جويلية أين نصّبت المدافع مباشرة، وبدأ قصف المدينة ثم اجتاح البحارة الاسبان شوارعها، وتمكنوا من احتلال المدينة بعد ثلاثة ساعات من المعارك الضارية، ووفق الرواية الإسبانية فقد تم تحرير 170 أسيرا مسيحيا أغلبهم من صقلية ومالطا.¹

لكن عديد التقارير تثبت أن الاسبان قد أثنخوا القتل والسبي والأسر في أهل المدينة، بشكل يندب له الجبين، "فبعد أن كان عدد سكان مدينة طرابلس بين الـ 15,000 و20,000 نسمة، تناقص بعد الاحتلال ليصل إلى حوالي 5000 نسمة، حيث تشير بعض التسجيلات إلى أنّ الاسبان قتلوا بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف نسمة، واستعبدوا بين الخمسة آلاف والستة آلاف طرابلسي.²

وأمام توالي النكسات أقبل حكام المدن الجزائرية والمغربية على دفع الضريبة السنوية للاسبان، مثلما وقع مع سلطات دلس ومستغانم وشرشال وتنس والجزائر العاصمة التي منح حاكمها المحتلين قلعة البينيون الواقعة قبالة سواحل المدينة، وأما قادة تلمسان فوافقوا على دفع الضريبة يوم الـ 05 جوان سنة 1510م.³

وهكذا نرى أن الاحتلال الإسباني والبرتغالي ليس سوى امتداد لحروب ما يسميه الاسبان بـ "الإسترداد"، أين جعلت هذه الحروب الوازع الديني أساسا لها، وكان لهذا أثره في بشاعة الجرائم التي أوقعها المحتلون في الساكنة المحلية المعزولة حيث كانت مصحوبة بروح صليبية حادة الحماسة.

¹ Vella Andrew P, op.cit, 362-363.

² Hartel, H et alt, The Last Great Muslim Empires, BRILL, 1997, p 138.

³ Robert Lambert Playfair, op.cit, p34.

وفي الجهة المقابلة أصبح المغرب العربي إما تابعا وإما محتلا، ولم تكن تمر سنة وإلا زاد معها النفوذ الإسباني في المنطقة، وعلى عكس ما كان يعيشه الإسبان فإن الانشقاق في المغرب الإسلامي قد بلغ أشده، فأصبح كرسي العرش أعلى من الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية، فترى الحكام يحجون حجا مع بعضهم البعض لإعلان الولاء لملك إسبانيا.

الماضرة الثانية

إحاق الجزائر بالدولة العثمانية 1510-1519م.

- 1- أصل الإخوة بربروسة.
- 2- الأخوين بربروسة في تونس.
- 3- اتصال الأخوين بأهل الجزائر 1512-1516م.
- 4- إحاق الجزائر بسلطة الأخوين 1516م.
- 5- وفاة عروج وإحاق الجزائر بالتاج العثماني سنة 1519م.

انطلق التوسع العثماني في الجهة الغربية من البحر الأبيض المتوسط في البداية بشكل غير رسمي على يد عروج وخير الدين منذ سنة 1510م، حيث لعبا دورا بارزا في رد الغزو الإسباني على المغرب العربي عامة والجزائر خاصة، فضا إليهما كل من جيجل ودلس وشرشال وتتس والجزائر العاصمة وقلعة بني راشد وتلمسان مركز الحكم الزياني لفترة من الزمن.

غير أن وفاة عروج بتلمسان سنة 1517م ألزم خير الدين وأعيان وعلماء المنطقة طلب الانضمام إلى الباب العالي، وأرسل لهذا الغرض حسين شاوش مبعوثا عن خير الدين إلى الآستانة سنة 1518م، ولأن السلطان رأى في الأمر فرصة لتوسيع نفوذ الإمبراطورية في الجهة الغربية من البحر المتوسط، فإنه أعطى موافقته المباشرة على الطلب الجزائري وأرسل في السنة الموالية الراية الهاميونية بالإضافة إلى ألفين من الإنكشارية وأربعة آلاف من المتطوعين.

1- أصل الإخوة بربروس:

فتح الأتراك جزيرة مدلي الواقعة ببحر إيجه سنة 1457م¹ وليثبتوا أقدامهم في المنطقة أمر السلطان "محمد الفاتح"، طائفة من جنده بأن تستقر نهائيا في الجزيرة²، فكان من الذين استقروا فيها الفارس يعقوب الروملي الذي تزوج الأنسة كاتالينا إحدى بنات المدينة وهي ابنة

¹ تذكر "غزوات" أن جزيرة ميدلي فتحت سنة 1462، أما بعض المصادر فتؤكد أن فتحها تم سنة 1457. ينظر: مجهول المؤلف، غزوات عروج وخير الدين، تح. نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934.

² مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مرجع سابق، ص2.

قس أرثودوكسي يوناني¹ حسبما ذهب إليه ماتاي والأب دان⁶؛ في حين يرى سقات سوجك وغيره من المؤرخين الأتراك الحاليين المختصين في الدراسات العثمانية إلى أنّ الإخوة بربروس من أصل إسلامي.⁷

أنجبت كاتالينا أربعة أطفال هم إسحاق وعروج وخير الدين وإلياس، وما إن بلغوا سنّ الرشد حتى التحقوا بوالدهم يعقوب الذي امتهن حرفة الفخار على الجزيرة²، وبعد أن ازدهرت تجارتهم قاموا بشراء سفينة لتحميل سلعهم إلى الجزر القريبة، وأسندت مهمة قيادتها إلى عروج وإلياس في حين كلف الخضر وإسحاق بصناعة الخزف، وقد تعمد يعقوب هذا التقسيم تنفيذًا لحكمة تعلمها في الجيش تفيد بوجود الجمع بين الاندفاع والتروي.

تعرّض عروج وإلياس في أحد رحالتهم التجارية لهجوم من قبل فرسان رودس⁶ الذين كانوا يمارسون أعمال السلب والنهب، في وقت لم يكن هناك قانون ينظم أعمال البحار، وكان القوي يفرض القانون الذي يريده ويرغبه على الضعيف¹⁷، فقتل إلياس وأخذ عروج أسيرًا إلى الجزيرة.²⁰

¹² Fray Diego De Haedo, Histoire des Rois d'Alger, Traduire par H.D. De Grammont, Adolphe Jordan, Alger, 1881, p3.

⁶ A.Mattei, protestation contre détracteur du système administratif suivi actuellement en Algérie, Paris, E. Denni Libraire éditeur, 1869, p23

⁷ المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني "القرصنة، الواقع، الأساطير"، ج2، دار القصبّة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص70.

¹⁴ H. D. de Grammont, op.cit, p20.

¹⁷ عزيز سامح أتر، الأتراك في إفريقيا الشمالية، تر. محمد علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1999م، ص28.

²⁰ مبارك الملي، ج3، مرجع سابق، ص33.

اشتغل عروج مجدفا على متن السفن القرصانية الرودسية، غير أنه استطاع الفرار في النهاية مستغلا إحدى العواصف التي اعترضت سبيل سفينتهم، أثناء نقلها بعثه من الأسرى ... المسلمين الذين افتداهم الأمير قرقود شقيق السلطان سليم الأول.

استقر عروج بعدها في مدينة أنضاليا، أين تعرف هناك على رجل اسمه "علي رايس"، ورافقه إلى مصر حيث أسندت له مهمة قيادة مراكب بحرية، مخصصة لنقل الخشب اللازم لصنع السفن، لكنه اصطدم بقرصنة جنوة فعاد إلى أنضاليا مجددا²⁷.

اجتمع عروج بعدها بالسلطان قرقود في ماسينا وتسلم منه سفينتين حربيتين كهدية، أين كان قرقود يفكر في تأسيس أسطول بحري (الصاعقة البحريين)، فنصحته بالذهاب إلى الجهة الغربية من البحر المتوسط، ... وأن يسير في أثر كمال رئيس، فأذعن عروج للأوامر وذهب بالسفينتين إلى مياه إيطاليا الجنوبية، وهاجم السفن الإسبانية والبندقية وعاد إلى خليج أزمير.²⁸

2- الإخوة بربروسة في تونس:

كان خير الدين يتحين الفرصة المواتية لهجرة صناعة الفخار، والارتقاء في أحضان المغامرة، ووجد الفرصة مواتية عندما اندلعت نار الحرب بين السلطان سليم الأول وأخيه قرقود خان... أين فرّ نحو سواحل المغرب العربي والتقى هناك شقيقه عروج في جزيرة جربة التونسية.

أما عن تاريخ وصول الأخوين فنجد أن أغلب المراجع التركية، تذكر أن تاريخ وصولهما إلى المغرب العربي يرجع لسنة 1512م في حين يذكر البعض الآخر أن تاريخ قدومهما يرجع إلى سنة 1513، وهي نفسها سنة استدياب السلطة لسليم الأول أي بعد إعدام شقيقه قرقود،

²⁷مبارك الميلي، مرجع سابق، ص34.

²⁸يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، مرجع سابق، ص243.

وبما أنّ عروج وخير الدين كانا مواليين للأمير الأخير، فإنّهما فرّا نحو سواحل المغرب العربي خوفاً على حياتهما، وفي المقابل يذكر هايدو أنّ وصول الأخوين إلى سواحل تونس يعود لسنة 1504م، وأما ديغرامون فيؤكد أنّ الأخوين وصلا السواحل المغاربية سنة 1510م، وهو التاريخ الراجح حيث أنه من غير المعقول أن يصل الأخوين سواحل تونس سنة 1504م، ويقوما بأول محاولة لفتح بجاية سنة 1512م، ولهذا فمن المحتمل أن يكون وصولهما إلى سواحل المغرب الإسلامي بين سنتي 1510-1512م.

اتفق الأخوان مع سلطان تونس الحفصي على دفع العشر *dàme* مقابل السماح لهم بدخول ميناء المملكة وشراء ما يلزم من مؤن لممارسة نشاطهما³⁶، في حين يذكر خير الدين أنّهما اتفقا مع السلطان على دفع الثمن من الغنائم التي يتحصلون عليها من أعمالهما البحرية بالإضافة إلى بيع غنائمهما على الأسواق التونسية.³⁷

وافق السلطان الحفصي على منحهما جزيرة جربة، التي جعلها قلعة حصينة وقاعدة لانطلاق حملاتهما البحرية التي ما فتئوا يمارسونها³⁸، وبعد أيام قليلة من توقيع التحالف، تمكن عروج من أسر غليارتين تعودان للبابا جوليووس الثاني³⁹.

لقد أخذت هذه الحادثة صدى واسعاً بعد أن أصبح البابا نفسه مهدداً من قبل الرياس الأتراك، ومنذ هذه اللحظة ازدادت شعبية الأخوين لدى الأوساط الشعبية المسلمة في شمال إفريقيا، حيث يقول دي غرامون: "خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر، تحدثت

³⁶ Fray Diego De haedo, op.cit, p5.

³⁷ خير الدين، مصدر سابق، ص46.

³⁸ ياتسيك ماخوفسكي، تاريخ القرصنة في العالم، مرجع سابق، ص88.

³⁹ Fray Diego De Haedo, op.cit, p6.

شعوب الساحل المتوسط عن الإخوة القرصنة الذين أصبحوا مشهورين جدا⁴¹، ويقول ماتاي في وصفه للأخوين: "لقد بدأوا القرصنة ضد كل الجنوب الأوربي، فنهبوا السواحل وأسروا السفن واختطفوا الرجال والنساء والأطفال، وكدسوا ثروة كبيرة حيث كانت بضع سنوات كافية ليصبحوا أكبر إرهاب ضد أوروبا الساحلية"⁴².

إن مثل هذه الأوصاف كانت كافية لترسم نموذجا مثاليا عن المنقذ المحتمل لمناطق المغرب العربي، فقد سمع سكان هذه المناطق عن أخبارهم وراحوا يتناقلونها بينهم بحماس وإعجاب.

كما بالغ مخطوط الغزوات في تضخيم مآثرهم البحرية، وسارت على منوالها المصادر الأوربية في القرن السادس عشر، التي ساهمت كثيرا في صنع أسطورتهم، لكن في هذا المجال تعتبر الأساطير نفسها عنصرا مهما لا يجوز إهماله، ذلك أن المجد الذي فتح لهم طريق الحكم هو نتيجة مشتركة لمآثرهم الحقيقية، وللأصداء المضخمة التي راجت بين الجماهير⁴³.

3- اتصال الأخوين بأهل الجزائر 1512-1516م.

يرجع أول اتصال للأخوين بالجزائر إلى سنة 1512، عندما طلب أهالي بجاية منهما المساعدة لطرد الاسبان واستعادة مدينتهم المحتلة منذ عامين؛ والحقيقة أن هذه الدعوة سوف تحدث منعرجا كبيرا في التطور السياسي للجزائر والمغرب.

⁴¹ H.d.De Grammont, op.cit, p20.

⁴² A.Mattei, op.cit, p23.

⁴³ المنور مروش، مرجع سابق، ص70.

لبنى عروج وخير الدين دعوة حاكم قسنطينة الحفصي أبا بكر، وحاصرا المدينة عام 1512م على رأس 12 باخرة مزودة بالمدفعية وحوالي ألف تركي،⁴⁶ غير أن إصابة عروج بقذيفة في يده من المدفعية الإسبانية⁵⁰، جعل خير الدين يعطي الأوامر برفع الحصار عن المدينة، حيث أرسل عروج إلى تونس وهو فاقد الوعي الأمر الذي استلزم بتر يده.⁵⁴

قاد عروج بعد تعافيه من الإصابة رفقة شقيقه خير الدين وابن القاضي حملة عسكرية على جيجل التي كان يحكمها الجنوبيين، حيث وقعت المدينة تحت سيطرتهم في أقل من يوم واحد⁵⁶، أين بلغ عدد الأسرى الأوربيين الذين ألقى عليهم القبض حوالي الستمائة أسير.⁵⁸

وما إن فرغ الأخوان من جيجل حتى وجها قواتهم نحو بجاية مجددا أملا في السيطرة عليها، رفقة أحمد بن القاضي الذي كان على "رأس عشرين ألفا من الساكنة المحلية"⁵⁹، غير أن هذه الحملة فشلت فشلا ذريعا مثل سابقتها، وذلك لتخلي السلطان الحفصي في تونس عنهما، بعد أن طلب عروج الدعم منه لنفاذ الذخيرة، وربما يعود تماطل هذا السلطان إلى تخوفه من الأخوين وما سينجر عنه سقوط بجاية تحت سيطرتهم، وفي المقابل فإن الكثير من القبائل الريفية انسحبت من الحصار من أجل التفرغ لزراعة حقولهم.

⁴⁶ H.d.DEGrammont, op.cit, p21.

⁵⁰ J.J.E.Ray, Histoire de l'Algérie (depuis les temps les plus anciens jusqu'à nous jours), tours,Ad Maure Cie,M DCCC LIX, p101.

⁵⁴خير الدين، مصدر سابق، ص53.

⁵⁶ J.J.E.ray,op.cit, p102.

⁵⁸صالح عباد، مرجع سابق، ص45.

⁵⁹المنور مروش، مرجع سابق، ص87.

انسحب عروج وخير الدين في نهاية الأمر إلى جيجل التي اتخذها منها قاعدة لعملياتهما البحرية،⁶¹ فاستغنت المدينة الفقيرة نتيجة الغنائم والعائدات البحرية⁶².

4- إلحاق الجزائر العاصمة بسلطة الأخوين 1516م.

راسل أعيان وساكنة الجزائر العاصمة الأخوين من أجل تحرير المدينة من قبضة الإسبان، ويذكر خير الدين في مذكراته قائلاً: "لقد وصلت وفود عديدة من المدن الجزائرية، وكان أهمها وفد الجزائر"⁶⁷.

خرج عروج من جيجل على رأس خمسمائة بحار وثمانية عشر غليارة وثلاثين سفينة⁷¹ باتجاه مدينة الجزائر تاركا وراءه خير الدين على جيجل في جانفي سنة 1516م⁶⁸، فاستولى في طريقه على مدينة شرشال التي ترك فيها حامية تركية⁷².

استقبل عروج في مدينة الجزائر بحفاوة بالغة، وأسكنه سالم التومي في قصره حيث انطلق من هناك مباشرة في قصف قلعة البينيون، غير أنه وبعد عشرين يوماً من القصف لم يستطع تحطيمها بسبب ضعف مدفعيته، فعبر الناس عن خيبة أملهم، كما عبر عن ذلك سالم التومي، غير أن عروج لم يتوانى في اغتياله، وحسب المؤرخ جوليان "فإن مؤامرة حيكت بين الثعالبة

⁶¹ Lamé Fleuvry, op.cit, p 126.

⁶² Fray Diego de Haedo, Topographie et Histoire générale d'Alger, Trd. Mounreaut, Berbrugger 1870, p20.

⁶⁷ خير الدين، مصدر سابق، ص 74.

⁷¹ Laugier De Tassy, Histoire de Royaume d'Alger Avec l'État présent de son gouvernement, de ses forces de terre et de mer & de ses Revenus, Police, Justice Politique & commerce, Amesterdam, Henri du Sauzet, 1837, p10.

⁶⁸ Lamé Fleuvry, op.cit, 126.

⁷² عزيز سامح ألتز، مرجع سابق، ص-ص 50-51.

والأسبان وأهل الجزائر للتخلص من عروج وقراصنته ففرض عروج سيطرته بالقوة مدعوما بالأتراك وأهالي جيجل⁷⁴.

وهكذا ساء موقف عروج، وبدأت صورته المثاليه التي تغنت بها الساكنة تتراجع تدريجيا، خاصة مع الفساد الذي بثّه الجنود الأتراك في المدينة والأرباض المحيطة بها، مما ضاعف سخط السكان ضد عروج، وراحوا يفكرون في الاستتجاد بالإسبان عن طريق حاكم معقل الجزيرة المقابلة لمدينة الجزائر الذي أرسل وفدا إلى إسبانيا يطلع الملك بالشكوى الجزائرية.⁷⁵

وافق الكاردينال كسيميناس على الطلب الجزائري، وأرسل في خريف سنة 1516م قوة بحرية مكونة من ثلاثين سفينة، وثلاثة آلاف جندي، تحت قيادة ديبينغوا دو فيرا، حيث رسي الأسطول الإسباني على الجهة الشرقية من السواحل الجزائرية بتاريخ في 30 سبتمبر سنة 1516م، وتم الإنزال في اليوم الموالي قرب واد مغاسل.⁷⁹

لم ينتظر عروج كثيرا وخرج للقاء الإسبان مستغلا سوء الأحوال الجوية والفوضى التي كان يعيشها الجيش الإسباني، فأخذ فيهم القتل⁸⁰ رغم الدعم الذي أرسله قائد قلعة البنيون⁸⁴.

غير أنّ مشاكل عروج في المنطقة لم تنتهي بمجرد هزيمة الاسبان حيث انضم عرب متيجة إلى ملك تنس حميدة العبد أحد أعداء بربروس، فكوّن حميدة العبد جيشا من ثمانية آلاف جندي وسار به نحو الجزائر العاصمة يهدف إلى استعادتها من يد الأتراك⁸⁷، فاستدعى عروج

⁷⁴صالح عباد، مرجع سابق، ص47.

⁷⁵مبارك الملي، ج3، مرجع سابق، ص46.

⁷⁹ H.D.de Grammont, op.cit, p23.

⁸⁰ Ibid.

⁸⁴ H.d. De Grammont, op.cit, p24

⁸⁷ Lamé Fleuvry, op.cit, p126.

خير الدين من دلس وعهد إليه حكم المدينة في غيابه، في حين أخذ عروج رففته ما يقارب العشرين من أعيان ووجهاء الجزائر العاصمة كرهائن خوفا من التمرد، وخرج لملاقاة حميدة العبد على رأس 1500 تركي فقط.⁸⁸

تمكن بربروس من هزيمة عدوه الذي فرّ إلى الجبال، ودخل عروج تنس في جوان سنة 1517م، وهناك وصلته وفود من مدينة تلمسان تستغيث به ضد سلطانها "أبو حمو الثالث" الذي تحالف مع الإسبان ضد سلطانهم الشرعي أبو زيان⁸⁹.

5- وفاة عروج وإلحاق الجزائر بالتاج العثماني سنة 1519م:

استولى الأخوين على المدينة ومليانة ودلس ونواحيها، وفي 11 محرم 923هـ/ الموافق ل3 شباط 1517م، تمكن السلطان سليم الأول من احتلال مصر فأرسل له الرئيس عروج رفقة الرئيس مصلح الدين الهدايا والتحف الثمينة تبريكا له بفتح مصر، وعرض عليه مراسيم الطاعة، وأعلم السلطان سليم الأول بما حققه من انتصارات هو ورفاقه فرد عليه السلطان بجواب تقدير وإعجاب وتقبل عرض عروج بكل مميونية⁹³.

قاد عروج حملة عسكرية نحو تلمسان مستغلا الصراع الذي نشب بين أفراد الأسرة الزيانية الحاكمة، "ففتح أولا قلعة بني راشد"، ونصّب عليها شقيقه إسحاق حاكما رفقة 200 جندي مسلحين بالبنادق⁹⁸.

⁸⁸ Lamé Fleuvry, op.cit, p126.

⁸⁹ عبد الحميد بن أسنهور، دخول الأتراك العثمانيون إلى الجزائر، المطبعة الشعبية، الجزائر، ص76.

⁹³ عزيز سامح أتر، مرجع سابق، ص ص 58-59.

⁹⁸ H.d.De Grammont, Quel est le lieu de la mort d'Aroudj Barberousse, Revue Africain, n22, 1877, p390.

وما إن بلغ نبأ سير بربروسة إلى تلمسان حتى فرّ أبو حمو الثالث إلى فاس، ثم إلى الحامية الاسبانية بوهران، فقام أهل تلمسان بإخراج الأمير أبا زيان من السجن وتعيينه حاكما عليهم، كما استقبلوا عروج استقبال الفاتحين، إلا أن الجند الأتراك أغلظوا في معاملة الساكنة المحليّة ... مما جعل الجميع يندم على الاستتجاد بالأتراك¹⁰⁰، حتى أنّ أبا رأس نقل عن القمع الذي مارسه الأتراك دعاء ابن ملوكة على عروج بالموت¹⁰¹.

استقر عروج بالمشور واحتل المدينة بالقوة، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد قام عروج بإغراق سبعين أميرا زيانيا في أحد الصحاريح¹⁰²، واغتال أميرهم أبا زيان الذي طلب منه الاعتدال في التعامل مع أهل تلمسان، ولتأمين جنبه من الهجمات الإسبانية المحتملة، أقام عروج السلم مع حاكم فاس، وفي نفس الوقت قام بترميم جميع الحصون الموجودة بالمدينة¹⁰³.

كان أبو حمو قد سافر مع قائد وهران إلى إسبانيا، لحضور مراسيم حفل تنصيب شارلكان إمبراطورا خلفا للملك فرديناند، حيث عاد بعدها الاثنان رفقة حوالي عشرة آلاف جندي إلى وهران بداية من سنة 1518م، وبفضل هذا الدعم تمكن أبو حمو من قتل إسحاق والقضاء على الحامية التي تركها عروج في قلعة بني راشد¹⁰⁶.

¹⁰⁰ مبارك الملي، ج3، مرجع سابق، ص49.

¹⁰¹ محمد بن أحمد أبي رأس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، تر. محمد غانم، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005، ص50.

¹⁰²H.D.de Grammont, op.cit,p25.

¹⁰³ Ibid.

¹⁰⁶ صالح عباد، مرجع سابق، ص48.

سار القائد الإسباني باتجاه تلمسان على رأس جيش مكوّن من 11.500 جندي وخمسة وثلاثين ألفا من أتباع أبو حمو¹⁰⁷، حيث حاصر الأسبان المدينة ستة أشهر كاملة¹⁰⁸، ولمّا حلّ عيد الفطر اغتتم السكان هذه الفرصة، وطلبوا من عروج أن يأذن لهم بالدخول إلى المشور لأداء صلاة العيد، فأذن لهم بذلك غير أنهم وبمجرد عبور أسوار المشوار حتى أخرجوا أسلحتهم المخفية تحت البرانيس ونزلوا في الأتراك ضربا وتقتيلا، فلم ينج إلا عروج وقليل من صحبه الذين اختفوا في معبر سري، وقرّروا الانسحاب على أمل اللّحاق بساحل البحر، أين سيجدون هناك في انتظارهم خير الدين¹⁰⁹.

قام الاسبان بملاحقة عروج أين التقى الطرفان مساء اليوم الموالي بين سيدي موسى ومعبر نهر ريو دو سالادو "Rio Salado"، ونجح عروج في اجتياز الطرف الآخر من النهر، ومن هناك أخذ في مراقبة المعركة اليائسة التي كانت مؤخرة جيشه تخوضها بهدف تغطية انسحابه، على أن التآثر البالغ بالبطولة والإخلاص اللذين أبداهما رفاقه دفعاه للإسراع عائدا إلى المعركة، وانضم إلى المدافعين عن رأس الجسر، وكان يدرك جيدا أن الوضع ميئوس منه، وبعد بضع ساعات إذ بالمنتصرين يكتشفون فوق أرض المعركة جثة عروج وقد تشوهت تماما¹¹².

أرسل رأس عروج إلى اسبانيا في حين سلّمت ثيابه التي كانت من قطيفة حمراء مزركشة بالذهب إلى كنيسة القديس جيروم بقرطبة، فصنع رجال الدين منها شعارا يسمى "شارة بربروس"¹¹³.

¹⁰⁷ يلماز أوزوتونا، ج2، مرجع سابق، ص-ص 250-251.

¹⁰⁸ H.d.de Grammont, op.cit, p26.

¹⁰⁹ Ibid.

¹¹² ياتسيك ماخوفسكي، مرجع سابق، ص95.

¹¹³ مبارك الملي، ج3، مرجع سابق، ص52.

أيقن خير الدين بعد وفاة عروج في تلمسان أن الحرب ضد الإسبان دون حماية قوة عظمى يعتبر مجرد حرب عصابات لا يمكن أن تؤدي الغرض، "فقام باستشارة أهل البلد وعرض عليهم فكرة الانضواء تحت راية الدولة العثمانية، حيث رحب أعيان المدينة وأهلها بالفكرة"¹ وهكذا أرسل شاوش حسين إلى الباب العالي يطلب منه إحاق الجزائر بالإمبراطورية العثمانية، فوافق السلطان على المقترح وأرسل الشارة الهاميونية وأربعة آلاف متطوع بالإضافة إلى ألفين من الإنكشارية.

¹عبد الرحمن الجبالي، مرجع سابق، ص300.

الماضرة الثالثة

عهد البايبربايات 1519-1587م

- 1- انتصاب حكم البايبربايات في الجزائر 1519-1540م.
- 2- حملة شارلكان على الجزائر 1541م.
- 3- تطور نظام البايبربايات 1543-1587م.
- 4- علج علي آخر الرياس العظماء 1568-1587م.
- 5- نهاية عهد البايبربايات 1580-1587م.
- 6- خصائص ومميزات عهد البايبربايات.

يعتبر عهد البايبربايات أول مراحل الحكم العثماني في الجزائر (1519-1587م)، حيث حكم خلالها البايبرباي الجزائري (أمير أمراء)، فبعد "مقتل عروج في الواد المالح سنة 1517م"¹، أيقن خير الدين أن مقاومة توسع الإمبراطورية الإسبانية في ظل الانهيار الذي كانت تشهده دويلات المغرب الإسلامي غير ممكن خاصة وأن الفوارق العسكرية كبيرة بين جيشه والجيش الإسباني، الأمر الذي جعله يميل بجنبه نحو السلطان العثماني ويطلب الانضواء تحت الراية العثمانية سنة 1518م.

والبايبرباي هو لقب يعني باي البايات أو أمير الأمراء حيث شاع هذا المصطلح في الفترة الوسيطة والحديثة ... واستخدمه السلاجقة والدولة الإلخانية خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1252-1335م، ثم الدولة الصفوية، كما استخدمه أيضا القلات في الدولة الباكستانية ولاحقا الدولة العثمانية وذلك بدءا من القرن 14م وحتى أواسط القرن التاسع عشر²، وأما نظام البايبربايات فهو حكم يسيطر فيه البايبرباي على مقاليد السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما أن للبايبرباي القدرة على تعيين وإقالة العديد من رجال الدولة والمشايخ الخاضعين لسلطته.

1- انتصاب حكم البايبربايات في الجزائر 1519-1540م:

كان أول بايبرباي نصّب على الجزائر هو خير الدين بربروس سنة 1519م، حيث لعب دورا بارزا في تثبيت حكم البايبربايات في المنطقة، معتمدا في ذلك على تقوية رجال البحر العثمانيين، وقد استطاعت طائفة الرياس بفضل جهوده الحثيثة الحفاظ على سلطتها وحماية مصالحها، وبذلك استمر حكم البايبرباي في الجزائر حتى أواخر القرن السادس عشر.

¹ Kamel Filali, L'Algérie mystique : Des marabouts fondateurs aux khwân insurgés, XVe-XIXe siècles, Paris, Publisud, coll. « Espaces méditerranéens », 2002, 214

² ينظر : The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Volume I: A-B. Leiden: E. J. Brill.

بعد أن استطاع خير الدين في بداية عهده من رد الحملة الإسبانية على الجزائر سنة 1518م، تحت قيادة هوغو دي مونكادا، تفرغ للقضاء على مملكة كوكو وقائدها ابن القاضي، بسبب تحالف الأخير مع الحفصيين، ويذهب فريق آخر من المؤرخين إلى أن توتر العلاقة بين الطرفين مردّها إلى عدم تقديم "ابن القاضي الدعم اللازم لعروج في حملته على تلمسان الأمر الذي أدى إلى مقتله".¹

جهّز خير الدين حملة عسكرية تمكن بواسطتها من ملاحقة نجل ابن القاضي حتى القل، غير أن الأخير استطاع الفرار نحو عنابة التابعة للحفصيين، أين لقي هناك كل الدعم من الملك الحفصي، "الذي أرسل له جيشا وأوكل له مهمة قيادته ضد الأتراك، فالتقى الجمعان بالقرب من سهل يسّر، وهناك ألحق ابن القاضي هزيمة نكراء بخير الدين، وأجبره على الفرار نحو جيجل، وإرسال تعليمات صارمة إلى أتباعه المتواجدين في العاصمة من أجل اللحاق به، في الوقت الذي أكمل ابن القاضي مسيرته نحو الجزائر العاصمة، فاستولى في طريقه على مئجة سنة 1520م".²

والحقيقة أنّ ابن القاضي لم يكن أحسن من الأتراك في تعامله مع أهل الجزائر العاصمة حيث استقر في المدينة خمس سنوات كاملة بين سنتي 1520-1525م، وفي المقابل تمكن خير الدين من التحالف مع أمير بني عباس عدو ابن القاضي الأول، لبيد الأتراك انطلاقاً من جيجل في التوسع نحو الشرق الجزائري، أين استطاعوا إلحاق قسنطينة سنة 1520م، والقل سنة 1522م، وكذا عنابة سنة 1521م.³

¹ صالح عباد، مرجع سابق، ص 51.

² De Gramont, op.cit, p33.

³ Haedo, op.cit, p45.

كان الوضع العام قد خلى لخير بشكل مناسب لأجل استعادة مدينة الجزائر، فبالإضافة إلى إخضاعه العديد من المناطق التي كانت تتبع لابن القاضي، فإن خير الدين قد تمكن من اكتساب شهرة واسعة في الأوساط الشعبية نتيجة حملاته البحرية الناجحة على السواحل المسيحية.

جهّز بربروسة حملة عسكرية ضد ابن القاضي، والتقى الجمعان في منطقة معبر أولاد بوغدورة، حيث هزم ابن القاضي هزيمة شنعاء، انسحب على إثرها نحو بني عائشة حيث اندلعت هناك المعارك بين الجانبين في اليوم الموالي، وتوفي على إثرها أحمد ابن القاضي نفسه.¹

استقر خير الدين مجددا في الجزائر العاصمة سنة 1525م، وشرع في تقوية أسطوله البحري، ليبلغ عدد قطعه "36 سفينة"²، خاصة مع وجود "رياس أكفاء إلى جانبه أمثال: "الرياس شعبان وحاتة الدين رايس وصالح رايس الذي سيصبح لاحقا أحد حكام الجزائر، حيث غزى الأسطول الجزائري سواحل فالنسيا وإسبانيا".³

لقد تزامن نشاط بربروس الخارجي مع العمل على الجبهة الداخلية، فتمكن من استعادة "قلعة البينيين من الإسبان سنة 1529م، وهزيمة أندري دوريا في شرشال سنة 1531م".⁴

¹De Gramont, op.cit, p34.

²Stanley Lane-Poole, The Story of the Barbary corsairs, New York: G.P Putnam's Sons, 1890, p59.

³ Haedo, op.cit, p46.

⁴ صالح العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة، تح. يحيى بوعزيز، الجزائر، عالم المعرفة، 2009،

أدى النجاح الباهر الذي حققه خير الدين إلى تنصيبه قائدا عاما على الأسطول الهامبوني سنة 1533م، حيث قاد في نفس السنة حملة عسكرية تمكن من خلالها فتح تونس واستعادتها من يد الإسبان.

عين بربروس بعد مغادرته الجزائر حسن آغا حاكما على الجزائر، وحسن آغا هذا هو رجل سرديني أسر صغيرا من قبل خير الدين في أحد حملاته على سردينيا وجلب إلى الجزائر، حيث "تربي وترعرع في بيت الأخير كأحد أبنائه"، ويصف هايدو حكمه قائلا: "إن الناس لا زالوا يذكرون حسن آغا ويقولون إنهم لم يروا حاكما عدل منه".¹

لعب حسن آغا دورا بارزا في إعادة بعث نشاط البحرية الجزائرية، حتى أن بلايفير يؤكد "أن صدى هذه الحملات وتأثيرها يعادل أو يتجاوز حتى تلك الحملات التي قادها خير الدين نفسه، ففي سنة 1539م هاجم السواحل الإسبانية على رأس جيش بلغ 1300 رايس، فاستولى على عديد الغنائم والأسرى".

وعموما فقد شهد حكمه استقرارا وأمنا خلال الستة سنوات اللاحقة وإلى غاية حملة شارلكان على الجزائر سنة 1541م.

2- حملة شارلكان على الجزائر 1541م:

قاد شارلكان حملة عسكرية على الجزائر سنة 1541م، حيث ادعى الإسبان أن الحملة جاءت لإيقاف المضايقات الجزائرية المتكررة على السواحل الإسبانية، غير أن السبب الحقيقي للحملة مردّه إلى الهزيمة الشنعاء التي تلقاها الإسبان في معركة بروزة سنة 1538م، حيث يؤكد خير الدين ذلك بقوله: «بعد معركة بروزة prévisa... جن جنون الإسبان فكان أن صار كارلوس يتصرف بطريقة يائسة تدعو للسخرية، وراسلني يطلب منّي أن أتخلى عن خدمة

¹ Haedo, op.cit, p53.

السلطان سليمان، على أن يجعلني ملكا وحيدا على كل البلاد الإفريقية الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي".¹

أقنع الأسطول الإسباني من قرطاجنة بتاريخ الـ 19 أكتوبر سنة 1541م، حيث تكوّن من 516 سفينة شراعية و65 سفينة كبيرة من نوع الغليارة، عليها اثنا عشر ألف بحار وثلاثة وعشرين ألف جندي، ورافق هذه الحملة متطوعون من النبلاء الإسبان والألمان والإيطاليون، حتى أن البابا نفسه أرسل ابن شقيقه كولونا ليرافق هذه الحملة.²

وفي الجهة المقابلة لم يكن جيش المدافعين تحت قيادة حسن آغا يتكوّن سوى من 800 تركي، وحوالي الـ 500 أو 600 أندلسي أغلبهم من المبعدين من غرناطة³، غير أنّ سوء الحظّ قد رافق الحملة في كلّ مراحلها، حيث أدى هبوب العاصفة إلى تحطيم أغلب الأسطول الإسباني، حتى "أن شارلكان شوهد وهو يبكي لأول مرّة في حياته نتيجة الخسائر الضخمة التي لقيها جيشه"⁴.

كانت الخسائر البشرية والماديّة مكلفة جدا على الطرف الإسباني، أين فقدوا مائتي سفينة، وأكثر من 12 ألفا بين قتيل وجريح، في الوقت الذي استطاع الجزائريون انتشال عدد هائل من الغنائم تمثّلت في رفع الكثير من السفن الصغيرة وبعض الغليارات الكبيرة، وخمسائة قطعة مدفعية مصنوعة من البرونز، ومقدار كبير من الأسلحة والتجهيزات الحربية، بالإضافة إلى

¹ خير الدين، مذكرات خير الدين بربروس، تر. محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص193.

²H.D.de Grammont, op.cit, p59.

³Esterhazy Walsin, de la domination Turque dans la régence Alger, Paris, libraire de Charles Cosselin, 1847, p146.

⁴عزيز سامح ألتز، مرجع سابق، ص162.

كم هائل من الأسرى، حتى أن البعض يذكر على سبيل المزاح "بأن الفرد الجزائري كان يمكنه شراء أسير مقابل بصلة".¹

3- تطور نظام البايبربايات 1543-1587م:

تتامي التدخل الفرنسي في الباب العالي منذ توقيع معاهدة الامتيازات بين الفريقين سنة 1535م حيث رأى السلطان العثماني في دعم فرنسا مانعا لأي اتحاد مسيحي يمكن أن يتشكل ضد الإمبراطورية العثمانية.

والحقيقة أن هذا النفوذ الفرنسي كان ذا آثار كارثية على الجزائر ولو تدريجيا، "ففي سنة 1544م عرض السفير الفرنسي على حسن باشا منصب قائد عام على الأسطول الفرنسي بشرط أن يهاجم وهران وإسبانيا، غير أن حسن باشا رفض اقتراح السفير، فأخطر الأخير السلطان العثماني بأن حسن باشا يريد الاستقلال عن الباب العالي، فاستدعي حسن باشا إلى الأستانة على جناح السرعة وعزل مباشرة"²، حيث خلفه على الحكم القائد السفاح.

ولعل ما يثبت إنصات الباب العالي لوسوسات السفراء الفرنسيين، هو وضع "درغوث باشا تحت تصرف الملك الفرنسي، وقد لعب درغوث دورا بارزا في الحرب الفرنسية الإسبانية، وذلك بهجومه المتواصل على الممتلكات الإسبانية بين سنتي 1547-1549م"³.

ولم يتوقف التدخل الفرنسي عند هذا الحد فقد طلب الملك الفرنسي صراحة من السلطان العثماني التنازل له عن الجزائر سنة 1571م، "مدعيا أن السكان الجزائريين قد راسلوه يطلبون

¹Walsin Esterhazy, op.cit, 146.

² مبارك الملي، مرجع ساب، ص79.

³المنور مروش، ج2، مرجع سابق، 113.

منه تولية ولي عهد فرنسي عليهم، غير أن السلطان أعلم السفير الفرنسي أن الجزائريين يكرهون الفرنسيين ولا يطيقونهم”¹.

عين صالح راييس حاكما على الجزائر خلفا للسفاح، وكان أبرز ما ميّز عهده هو استرجاع بجاية من يد الإسبان سنة 1555م.²

وقد كان لهذا الإنتصار وقعه البالغ على صالح راييس، حيث بلغت أحلامه عنان السماء وبدأ يفكر جدياً في استعادة وهران من يد الإسبان سنة 1556م، غير أن الطاعون الذي ضرب فخذيه جعله عاجزاً عن قيادة الجيش، الذي لم يكن من النوع الذي يصبر على حاكمه حيث اجتمع قاداته وعينوا بدلاً عنه حسن قورصو.³

عاد حسن باشا مجدداً إلى الجزائر وعين حاكماً على البلد، غير أنه سرعان ما عزل بسبب انقلاب الإنكشارية عليه، بالإضافة إلى المخاوف التي حامت حوله، لمحاولته رفع عدد المجندين من الساكنة المحلية في الجيش الجزائري، ونتيجة لهذا كبتته الإنكشارية في الأغلال وأرسلته إلى القسطنطينية سنة 1561م، حيث ألحقت به تهمة محاولة الاستقلال عن الباب العالي، غير أن حسن آغا تمكن من إقناع ديوان السلطان والعودة إلى الجزائر مجدداً سنة 1562م.⁴

¹ ينظر: De Grammont, op.cit.

²John Foss, p84.

³John Foss, op.cit, p85.

⁴المنور مروش، ج2، مرجع سابق، ص ص135-136.

عين محمد باشا حاكما على الجزائر سنة 1567م، وفي عهده ضربت المجاعة الجزائر، غير أنه استطاع أن يتغلب عليها، ويألف بين قلوب الإنكشارية وطائفة الرياس ولو بشكل مؤقت، وأنشأ برجا يدعى "برج محمد باشا"، حيث كلف ببنائه رجلا صقليا يدعى مصطفى. ثار أهل قسنطينة على الحامية التركية الموجودة في المدينة سنة 1567م¹، ويذكر هايدو أن سبب الانتفاضة يرجع إلى أن الباي التركي انتهك "عرض أحد بنات المدينة الجميلات"، وكان من نتائج هذا الفعل مقتل أربعة أو خمسة جنود أتراك على يد أهل المدينة.² جهز محمد باشا حملة لتأديب الثوار وسار نحو قسنطينة التي دخلها مثل الغزاة، فأوقع الجزائم في أهلها "وسبى النساء والأطفال وباعهم في مزاد علني"، غير أن بعض الناجين تمكنوا من الفرار نحو طرابلس الغرب، ومن هناك اتجهوا نحو إسطنبول وأعلموا السلطان العثماني بما فعله محمد باشا في عيالهم وأهل البلد، ف جاء "الأمر بتعيين علج علي حاكما على الجزائر سنة 1568م".³

4- علج علي آخر الرياس العظام 1568-1587م.

لعل أحد أشهر الحكام المهتمين الذين حكموا الجزائر هو "جيوفاني ديوجيدي غاليتي الذي غير اسمه بعد إسلامه إلى علج علي".⁴

أسر علج علي من طرف الرياس أحمد سنة 1536م، واشتغل في البداية مجدفا على السفن الجزائرية، ليترقى تدريجيا ويصبح أحد شركاء درغوث باشا في عملياته البحرية على

¹ ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشاوات الجزائر وعلمائها، تح: فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، 2009م، ص41.

² Haedo, op.cit, p155.

³ Ibid.

⁴ قرياش بلقاسم، اعتناق الإسلام في الجزائر خلال القرن 17م، ملتقى دولي، جامعة بركة، 2023م، ص5.

السواحل الأوربية، ثم حاكما على جزيرة ساموس، فحاكما على الجزائر سنة 1568م، ونظير قدرته الفائقة في إنقاذ الجناح الأيمن خلال معركة ليبانتو الشهيرة عيّنه السلطان العثماني قائداً أعلى للقوات العثمانية سنة 1571م¹، ويذكر ستانلي لان بول بعد وفاة عرج علي قائلاً: "لقد كان آخر قرصان عظيم... يموت في الجزائر".²

وفي عهده استقرت الأوضاع داخليا بفضل قدرته البالغة في مهادنة القبائل الجزائرية، وبنى برج باب الواد، وأنشأ التحصينات الدفاعية التي تحيط بمدينة الجزائر،³ وأما على الصعيد الخارجي فقد ساهم عرج علي مساهمة بالغة في دعم "ثورة جبال البشرات التي اندلعت في غرناطة سنة 1569م، أين أرسل في بداية جانفي من نفس السنة خمس سفن جزائرية محملة بالجنود والذخيرة والمؤن، كما بعث في أكتوبر أربعة آلاف جندي ومئات من الإنكشارية كقادة للانتفاضة رفقة 32 سفينة كاملة، وفي سنة 1570م أرسل جنودا آخرين لدعم إخوانه الثوار، حتى أن عرج علي تهيأ بنفسه لمرافقة هذه البعثة، لولا وصول أخبار تقييد بأن دون خوان دي أوستريا قد شرع في التحضير لمعركة ليبانتو".⁴

نهاية عهد البايبربايات 1580-1587م:

نصّب أحمد أعراب حاكما على الجزائر بسبب تعيين عرج علي قائداً عاما على الأسطول العثماني سنة 1572م، فشهدت فترة حكمه انتشار "الطاعون الذي قتل ثلث سكان الجزائر

¹ ينظر: Stewart, William. Admirals of the World: a Biographical Dictionary, 1500 to the present. McFarland 2009.

² Stanley Lane-Poole, The Story of the Barbary corsairs, New York: G.P Putnam's Sons, 1890.

³ ابن المفتي، مصدر سابق، ص42.

⁴ صالح عباد، مرجع سابق، ص91.

العاصمة”¹، والحقيقة أن فترة تولي أحمد السلطة لم تدم طويلا بسبب “الخلاف الذي شبّ بينه وبين القائد الأعلى للبحرية الجزائرية مامي أرناؤوط، الذي عزله ونصّب مكانه مراد رايس”.

لم يتقبل السلطان العثماني هذا التعيين، وأرسل إلى الجزائر القائد رمضان سنة 1574م “وهو من أصل سرديني”²، حيث نشبت في عهده خلافات مع المغرب الأقصى وذلك للتحالف الذي نهجه المتوكل مع الإسبان، فخرج القائد “رمضان نحو فاس على رأس ستة آلاف فارس شهر ديسمبر سنة 1575م وهو منتشي بالانتصار الذي حققه العثمانيون في تونس سنة 1574م واستعادتها من يد الإسبان، فتمكن من تنصيب مولاي عبد الله على عرش المغرب ورجع قافلا إلى الجزائر سنة 1576م”³.

خلف القائد رمضان على عرش الجزائر حسن فينيزيانو، الذي تزايد في عهده نفوذ الإنكشارية، وأصبح تدخلهم في الشؤون السياسية جليًا، حيث “وقعوا عريضة أرسلت إلى السلطان العثماني سنة 1580م تحصي مساوئ إدارة فينيزيانو، فلم يعارض السلطان العثماني اقتراحهم وأرسل جعفر باشا حاكما جديدا على الجزائر” والحقيقة أن جعفر باشا هذا كان أحد محظيي السلطان، حيث عيّنه في بداية مسيرته حاكما على هنغاريا وبورجيا.⁴

لم ترضى الإنكشارية على جعفر باشا هو الآخر، وراحت تدبّر ضدّه الدسائس لقتله لأجل تعيين آغا الإنكشارية بن دالي مكانه، غير أن جعفر باشا تمكن من قمع هذ الانتفاضة وقطع رؤوس المتآمرين يوم الـ 30 أبريل سنة 1581م.⁵

¹Haedo, op.cit, p178.

²Ibid, p180.

³ صالح عبّاد، مرجع سابق، ص98.

⁴ De Gramont, op.cit, p120.

⁵Ibid, p122.

وفي هذا الجوّ المتوتر وصل القابودان باشا علج علي إلى مدينة الجزائر على رأس ستين بارجة حربية، وأعطى أوامره بتنظيم الجيش من أجل قيادة حملة عسكرية على المغرب، إلا أن الإنكشارية قابلت طلبه بالرفض، وسارعت إلى إرسال المدعو سيدي بوتكة إلى السلطان الذي أكد له عزم علج علي الاستقلال بالمغرب العربي لنفسه، وما كان من السلطان العثماني إلا أن أذعن لطلب الإنكشارية مرة أخرى وطالب علج علي بالتخلي عن مشروع، والتوجه مباشرة نحو شبة الجزيرة العربية للقضاء على الثورة التي نشبت ضد الأتراك.¹

نصّب السلطان العثماني القائد رمضان للمرة الثانية واليا على الجزائر خلفا لجعفر باشا، غير أن طائفة الرياس سرعان ما ثارت ضده، بسبب إرجاع سفينين فرنسيتين كان قد أسرهما أحد الرياس المدعو مراد، ففر القائد رمضان نحو طرابلس الغرب، أين توفي في العام الموالي في إحدى المعارك ضد قائد القيروان.²

عيّن حسن فينيزيانو للمرة الثانية حاكما على الجزائر بتوصية من علج علي واستمر في منصبه لغاية سنة 1588م، أين عيّن قابودان باشا على الأسطول العثماني خلفا لعلج علي الذي توفي سنة 1587م.

وهكذا انتهى عصر البايبربايات بوفاة علج علي سنة 1587م، وبدأ عهد جديد سيحكم فيه الباشاوات، ويؤدي ذلك إلى انفصال الجزائر عن الباب العالي تدريجيا من ناحية اتخاذ بعض القرارات وحتى تعيين الباشاوات وعقد المعاهدات مع الدول الأوروبية، أين استقلت فيه الأقلية الحاكمة لنفسها بالحكم والتدبير وعزل العامة.

6- خصائص ومميزات عهد البايبربايات:

¹ مبارك الملي، مرجع سابق، ص116.

²De Gramont, op.cit, p122.

تميز عهد البايبربايات بالآتي:

- أرسل السلطان العثماني إلى الجزائر ألفين من الإنكشارية سنة 1519م، وأربعة آلاف متطوع تركي.¹

- كانت الجزائر قلب الحكم العثماني في المغرب العربي، حيث تخضع لسلطتها كل من تونس وطرابلس الغرب.

- تزامن حكم البايبربايات مع عصر الحروب الكبرى بين الدولتين العثمانية والإسبانية، حيث قاد الأسطول العثماني في مرّات عديدة حكام جزائريون، ففي سنة 1538م استطاع خير الدين القائد الأعلى للأسطول الهامبوني أن يهزم القرصان الكبير أنديري دوريا في معركة بروزة، وفي سنة 1571م وأثناء معركة ليبانتو استطاع حاكم الجزائر علق علي إنفاذ الجبهة اليمنى والعودة إلى الاستانة، ليعين بعدها قائدا عاما على الأسطول الهامبوني.²

- استطاع الجزائريون خلال هذه الفترة استعادة الكثير من الثغور التي كانت في حوزة الاحتلال الإسباني، فاستعادوا قلعة البينيون سنة 1529م وتلمسان سنة 1554م وبجاية سنة 1555م وطرابلس الغرب (ليبيا حاليا) سنة 1551م، وتونس سنة 1574م، في حين بقي كلّ من المرسى الكبير ووهران تحت سيطرة الإحتلال الإسباني وذلك إلى غاية سنة 1792م.

- شهدت حكم البايبربايات غارات "صليبية" إسبانية مدعمة من قبل البابا الذي طلب من المسيحيين مرافقة شارل الخامس في عمليات احتلاله للجزائر، "واعدا كلّ من رافق حملاته أن

¹ De Gramont, op.cit, p45.

² ينظر: قرياش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون...، مرجع سابق.

يمسح خطاياه وأن تكون الجنة موعدا لكلّ من مات وهو يقاتل الكفّار.¹ فمثلا: هاجم سنة 1519م هيغو دي مونكادا الجزائر حيث رافقه فيها آلاف المتطوعين الذين وعدوا بالجنة.² كما قاد شارل الخامس حملة ضد الجزائر سنة 1541م على رأس قوات تكونت من 516 سفينة من نوع الغاليه والغليوبات، وعلى متنها 40.000 مقاتل²¹⁹، "كما رافق الحملة أيضا رجال مع عائلاتهم بهدف الاستقرار بالمدينة بعد احتلالها واستيطانها مثلما حدث في العالم الجديد، لكن الحملة فشلت نتيجة لسوء الأحوال الجوية التي أغرقت أغلب الأسطول الإسباني".³

- استدعى سنة 1543م الملك الفرنسي فرانسيس الأول خير الدين حاكم الجزائر إلى مارسيليا مع أسطوله المكوّن من 150 سفينة، وقد علّق ستانلي لان بول قائلاً: "لقد أنزلت راية العذراء لتعوّض بالهلال الإسلامي"، وأما بالنسبة لأحد قواد البحرية الفرنسية فقد اعتبر هذا التحالف "اتحادا إحاديا".

أقلع أسطول خير الدين في جويلية من ذات السنة باتجاه خليج ليون أين استقبل بحفاوة من قبل دوق إنجيان فرانسوا بوربون القائد الأعلى للقوات البحرية الفرنسية، ورغم المعارضة الداخلية التي تعرض لها الملك الفرنسي بعد تحالفه مع "الهراقة المسلمين" على حد وصف المعارضين، إلا أنه قرر المضيّ قدما وطلب من خير الدين قصف نيس، لكن الحملة لم يقدر لها النجاح، وعادت بعدها البحرية الجزائرية لتستقر في ميناء طولون طيلة الشتاء، حيث كلفت الحملة الجزائرية الخزينة الفرنسية أموالا طائلة، "فبالإضافة لدفع الفرنسيين أجرة البحارة

¹ Alessandra Stella, *Histoires d'esclaves dans la Péninsule Ibérique*, Paris: Édition de l'École des Hautes Etudes en Sciences Sociales, 2000, p. 68

² Martin Andrew Sharp Hume, *Spain: Its Greatness and Decay (1479-1788)*, University Press, 1899, p43.

³ Fatiha, *op.cit*, p. 35.

الجزائريين فإنهم أُجبروا على تحرير 400 مسلم من الغاليارات الفرنسية، كما أن خير الدين حصل على الكثير من الهدايا.¹

- تميّز عهد البايبربايات بالاستقرار السياسي، حيث شهدت الجزائر تكاتفا بين أهل البلد والسلطة التركية الحاكمة، خاصة مع استمرار عمليات التحرير التي كان يقودها البايبربايات في المناطق الجزائرية.

- سيطر الرياس على الحكم، وهكذا شهدت الفترة حكم رجال البحرية للجزائر، ويؤكد الكثير من المورخين أنّ الرياس كانوا أكثر قربا من السكان المحليين، إذ كان يحق لعامة الجزائريين المشاركة بأسهم عند خروج الأسطول الجزائري إلى البحر، شرط أن يتحصل على فوائد محددة بعد عودة الأسطول محمّلا بالغنائم؛ حتى أن النساء الجزائريات كن يضعن ذهبهن أملا في الاستفادة من تلك الفوائد.²

- كان للبايبرباي صلاحيات غير محدود في الحكم، وله الحق في اعتلاء العرش دون تحديد فترة الحكم إلا في الحالات التي يتجاوز فيها الحاكم صلاحيات قد تهدد الوجود العثماني داخل المنطقة، فقد عزل حسن باشا ابن خير الدين مرتين عن حكم الجزائر³ لمشاكل مع الجارة المغرب حسب الرواية العثمانية، وفي تقارير أخرى أنّ "القنصل الفرنسي في الجزائر هو الذي وسوس للسلطان العثماني حول سلوك حسن باشا وإساءته للفرنسيين، ما أدى في النهاية إلى عزله عن الحكم".⁴

¹Stanly Lane Poole, p.105-109.

²ينظر: ويليام سبنسر، مرجع سابق.

³Handbook, op.cit, p19.

⁴ينظر: صالح عباد، مرجع سابق.

-اعتبرت اللغة التركية لغة السلطة والمراسلات والإدارة العثمانية في الجزائر، في الوقت الذي بقيت اللغة العربية لغة العلماء والقضاء المالكي، والتدريس، حيث راج استخدامها في المساجد والكتاتيب والزوايا.¹

- تميّزت الحياة الثقافية خلال هذه الفترة بالجمود الفكري حيث لم يظهر أحد من المفسرين ولا المصلحين طيلة سبعين سنة كاملة.²

- قام حسن باشا بتقسيم الجزائر إلى أربعة بايلكات يحكم كل منها باي يقوم بتعيينه حاكم الجزائر:³

1- دار السلطان: توجد في الجزائر العاصمة، وهي مركز حكم البايلرباي، وتمتد من دلس شرقا إلى مدينة شرشال غربا، ويحدها من الجنوب بايلك التيطري.

2- بايلك التيطري: عاصمته المدينة، يحده من الشمال سهل متيجة، والصحراء جنوبا.

3- بايلك الغرب: عاصمته مازونة ثم معسكر سنة 1710م، لينتقل في النهاية إلى وهران وذلك بعد استعادتها من قبل الباي عثمان سنة 1792م، أين يحده غربا بايلك التيطري وشمالا سهل متيجة وجنوبا الصحراء.

¹Handbook, op.cit, p19.

²عبد الجليل رحموني، اهتمامات المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر العثمانية 1520-1830م، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة سيدي بلعباس، 2015م. نقلا عن: Kuran E, la Lettre de d'ernier Dey d'Alger au Grand Vizir de Lempire Ottoman, R.A, n96, Alger, 1952, p95.

³عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص62-63.

4- بايك الشرق: عاصمته قسنطينة، ويحده من الشرق تونس، وشمال البحر المتوسط وجنوبا الصحراء، وغربا بلاد القبائل.

الماضرة الرابعة

عهد الباشوات 1659-1587م

- 1- الباشوات الأوائل 1587-1604م.
- 2- ثورة الكرافلة والساكنة العلية 1596م.
- 3- الحملة الصليبية الإسبانية على الجزائر سنة 1601م.
- 4- انتعاش النشاط البحري والاقتصادي الجزائري 1608-1632م.
- 5- انهيار نظام الباشوات 1633-1659م.
- 6- سقوط الباشوات 1645-1659م.

نتج عن نهاية عهد البايلرباي بزوغ عصر جديد سميّ بـ"الباشاوات" حيث مُنحت الولايات العثمانية الثلاثة (الجزائر، تونس، وطرابلس الغرب) استقلالاً ذاتياً دون الحاجة في أن تتمركز تحت سلطة الجزائر، وذلك خوفاً من انقلاب يمكن أن يحدثه البايلرباي عـلج علي، ما قد يؤدي إلى انعكاسات خطيرة على الوجود العثماني في المغرب العربي، كما تقرر أيضاً نزع لقب بايلرباي الذي كان لقباً بحرياً وِعوّض بلقب الباشا، تجنباً لأيّ صراع يمكن أن ينشأ بين الإنكشارية ورجال البحرية.

غير أن ديغرامون "يعتبر أن خشية البلاط العثماني من تمركز السلطة في يد الجزائريين باعتبارهم تهديداً مباشراً للسيطرة العثمانية، سبب غير مبرر حيث لم يستوعب صانعوا القرار داخل قصر السلطان أن ما كان يمكن أن يكون تهديداً في المقاطعات الأوربية الخاضعة لسلطة العثمانيين، هو لا حدث بالنسبة للمغرب العربي، ذلك أن قادة الجزائر كانوا في الغالب يستمدون قوتهم من الباب العالي نفسه، بالإضافة إلى أن الساكنة المحلية كانت طوال الوقت إما ضعيفة أو مستضعفة"¹.

وفعلاً فقد أدى فصل ولايتي طرابلس الغرب وتونس عن الجزائر إلى سيطرة الإنكشارية على الحكم، ما نتج عنه اتساع الهوة بشكل جلي بين السلطة الحاكمة والعامّة، وعزل طائفة الرياس ولو بشكل مؤقت، والحق أن رجال البحر طالما كانوا قريبين من أهل الجزائر، بسبب كرمهم وتوزيع الكثير من موارد الغنائم القادمة من البحر، وذلك على عكس الإنكشارية الذين ارتبطوا في المخيال الشعبي دوماً "بالضريبة والمحلّة".

يتولى الباشا الحكم ثلاث سنوات فقط، على عكس البايلرباي الذي لم يحدد زمن حكمه بتاريخ معيّن حيث يرسل من الباب العالي؛ ورغم أنّ الباشا كان يمكن أن يكون قوياً نظرياً،

¹ Degramont, op.cit, p124.

غير أن سلطته في الواقع كانت محدودة بشكل شبه كلي بسبب سلطة الإنكشارية والديوان، ولهذا انحسرت سلطته على جمع الضرائب وتأمين أجور رجال الإنكشارية والبحرية.¹

1- الباشاوات الأوائل 1587-1604م:

كان أول باشا تولى حكم الجزائر هو أحمد باشا سنة 995هـ/1587م²، ويعرف أيضا في الكتابات الغربية باسم "أحمد دالي وفي عهده نشطت أعمال البحر وبلغت أوجها، فبين سنتي 1586-1588م تمكن الرياس من قيادة حملات بحرية ناجحة على طول سواحل نابولي وصقلية والدول البابوية وكورسيكا وإسبانيا، غير أن حكمه لم يستمر طويلا حيث قتل أثناء محاولته القضاء على إحدى الثورات في طرابلس الغرب سنة 1589م.³

تولى الحكم من بعده خضر باشا التركي، حيث وصل سواحل الجزائر شهر أوت سنة 1589م، وقد نشطت البحرية تحت سلطته هو الآخر؛ "خاصة مع وجود رياس أكفاء أمثال مراد رياس وأرناؤوط".⁴

وفي عهده رفض أمير قلعة بني عباس دفع الضريبة، فأرسل الخضر حملة عسكرية ضده في شهر ديسمبر سنة 1590م، تكوّنت من اثنا عشر ألف جندي وأربعة آلاف فارس، في الوقت الذي ضمّت قوات أمير قلعة بني عباس ثلاثين ألفا "وفق ما أورده هايديو".⁵

¹ Shuval, Tal, La ville d'Alger vers la fin du XVIIIe siècle: population et cadre urbain, Diss. Aix-Marseille 1, 1994, p14-15.

² ابن المفتي، مصدر سابق، ص44.

³ Degramont, op.cit, p139.

⁴ Haedo, Les Rois..., op.cit, p231-233.

⁵ Haedo, Les Rois..., op.cit, p233.

حاصر الجيش الجزائري قلعة بني العباس، دون جدوى الأمر الذي دفع الخضر إلى حفر خندق واسع حول القلعة وتخریب كل ما يقع بالقرب منها، فأدرك أمير بني العباس أنه هالك لا محالة، فأرسل أحد المرابطين يطلب من الخضر التوصل إلى اتفاق يرضي الطرفين، فوافق الأخير مقابل أن يدفع قائد قلعة بني عباس تكاليف الحرب.¹

ورغم أن عهد الخضر قد شهد توازنا بين النشاط الداخلي والخارجي، إلا أن عبثية الديوان وبعض الرياس المتنفذين، جعل من بقاء الخضر على عرش السلطة في الجزائر مستحيلا "بعد أن أرسلت بعثة تشتكيه إلى السلطان تحت قيادة مامي أرناؤوط".

إن الباشا في الحقيقة لم يكن سوى خادما مطيعا للديوان، مقابل أن يبقى في قصره ويحصل على رتبة متميزة وحياة مادية مريحة، فرغم أن الوثائق الرسمية طالما احتوت بداياتها العبارة التالية: "نحن الباشا وديوان الجيش العثماني في الجزائر... غير أن الباشا لم يكن يملك السلطة التنفيذية وأصبح مجرد أداة في يد الديوان صاحب السلطة الفعلية، ولم يكن الباشا "يجراً حتى على الحضور إلى اجتماعات الديوان دون استدعائه".²

والحق أن السلطان العثماني لم يكن يخالف أهواء الديوان ونزواته التسلطية، حيث عين الباشا شعبان خلفا لخضر باشا دون أن يعاتب الديوان ولو برسالة واحدة، وقد حكم الباشا الجديد الجزائر ثلاث سنوات بين سنتي 1592-1595م، لم يسجل لنا التاريخ من أحداثها الشيء البارز، سوى الطاعون والمجاعة والعاصفة التي ضربت الجزائر وأدت إلى تخریب بعض سفن الأسطول الجزائري سنة 1593م.

2- ثورة الكراغلة والساكنة المحلية 1596م:

¹ مبارك الميلي، مرجع سابق، ص136.

²Degramont, op.cit, p125.

عاد خضر باشا حاكما إلى الجزائر سنة 1595م، وكلّه حقد وغلّ تجاه طائفة الإنكشارية التي أخرجته من المدينة صاغرا في عهده السابقة، وبمجرد وصوله الجزائر قام بحجز "خمس عشرة ألف لويضة ذهبية من أموال سلفه، وجعلها وقفا لإعادة تحصين الميناء الذي خربته العاصفة سنة 1593م"،¹ لكن عزيز سامح أتر يؤكد "أن الخضر استأثر بهذه الأموال لنفسه".² ولكي يحقق خطته المنشودة، سعى خضر باشا إلى الاستعانة بالرياس، وشحذ سكان العاصمة والكراغلة ضد الإنكشارية، مستغلا الكره والحقد الذي كان يكنّه العامة لهم والحق أن هذا الكره مردّه إلى سوء استخدام أفراد الجيش الإنكشاري لسلطتهم التي أثقلت كاهل الساكنة المحلية وجعل الجيش مجرد أداة للقمع في يد قادتها.

اندلعت الثورة وانضم إليها الكراغلة وأهل المدينة سنة 1596م، وشهدت أحداثها تسلسلا مروعا، حيث استمرت لأشهر كاملة، غرقت فيها شوارع المدينة في الفوضى والدماء، "لكن ما إن التحق السكان من خارج العاصمة بثورة أشقائهم حتى وقع النصر سنة 1596م".³

لقد كانت الثورة بمثابة أول تحالف يجمع أهل البلد والكراغلة، ولا ندري لما لم يتخذ الخضر لنفسه جيشا من أبناء وساكنة البلد، ويحلّ أوجاق الإنكشارية أو يحد على الأقل من نفوذها، ولم يمضي الوقت الكثير حتى عاد رجال الإنكشارية إلى سالف دسائسهم، "فراحوا يعلمون الباب العالي بأن الخضر ينوي القضاء على الإنكشارية، وهو مقدم على تأسيس جيش من

¹ مبارك الميلّي، مرجع سابق، ص 148.

² عزيز سامح أتر، مرجع سابق، ص 308.

³ Degramont, op.cit, 140.

السكانة المحلية ليستقلّ في النهاية بالجزائر¹، فعزل عن منصبه وعين بدلا عنه الباشا مصطفى أواخر سنة 1596م.

كان عزل الخضر وبالا على أهل البلد، حيث اشتدت وطأة الإنكشارية عليهم ولم يجد السكان بدا سوى اعتناق الثورة مجددا، فانضم الكثير منهم إلى أمير قلعة بني عباس، وأعلنوا الثورة على الأتراك سنة 1598م، "ليزحفوا رفقة جيش الأمير نحو أبواب الجزائر العاصمة استقروا في باب عزون محاصرين المدينة مدّة اثنا عشرة يوما كاملا، غير أن الهجوم الذي قاده الأتراك ضدهم أدى في النهاية إلى رفع الحصار وانسحابهم إلى قلعة بني عباس".² لم يكن السلطان العثماني راضيا عن تهاون الباشا مصطفى في التعامل مع تمرد السكانة المحلية، وأعطى الأوامر بإقالته من منصبه "وتعيين دالي أحمد الملقب بأبو ريشة بدلا عنه سنة 1599م" وفق ما أورده ديغرامون، في حين يؤكد ابن المفتي "أن السلطان نصّب عوضا عنه حسن المعروف باسم باشا بوجقارجي سنة 1598م".³

3- الحملة الصليبية الإسبانية على الجزائر سنة 1601م.

تولى سليمان باشا الحكم سنة 1600م⁴، وقد واجهت ولايته العديد من الأزمات والمشاكل، كتوتر العلاقات الجزائرية الفرنسية وتواصل الثورة في الداخل، ولعلّ ما زاد الطينة

¹عزيز سامح أتر، مرجع سابق، ص310.

²Degramont, op.cit, p140.

³ ابن المفتي، مصدر سابق، ص142.

⁴ ابن المفتي، مصدر سابق، ص45.

بلّة حسب ديغرامون "هو ذلك النجاح الباهر الذي كانت تحققه الثورة"¹، ولهذا فقد جهز سليمان في نفس السنة التي تولى فيها السلطة حملة ضدّ زعيم الثوار أحمد أمقران قائد مجانة، الذي توفي في المعارك، "حيث خلفه ابنه سي ناصر واشتبك في العام الموالي مع الأتراك بالقرب من جمعة الصهريج، وألحق بهم هزيمة شنعاء"².

كان لتسارع هذه الأحداث أثرها البالغ في تشجيع الاسبان على قيادة حملة عسكرية ضدّ الجزائر، مستغلّين تفرّق الجبهة الداخلية في البلد وتنامي المعارضة المحلية ضدّ الحكم العثماني، حيث "رأى الجاسوس الفرنسي المدعو روكس الذي خدم لفترة طويلة في البحرية الجزائرية ودرس تحصينات المدينة، أنّ الحل يكمن في إرسال أربعة سفن يتكفل طاقمها بتحطيم باب البحرية وإطلاق سراح جميع الأسرى الأوربيين المتواجدين في المدينة"³، غير أن خطة كهذه بدت أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، وهذا ما كان يعلمه جيّدًا خوان دوريا حفيد القرصان الشهير أندري دوريا، الذي أعلم الملك الإسباني بأن حملة بهذا الشكل مصيرها الفشل لا محالة. اقترح خوان دوريا أن "يرسل الاسبان أسطولًا كاملاً لاحتلال مدينة الجزائر، بالإضافة إلى متطوعين يتم استدعائهم من باقي دول القارة الأوربية"، ووفق تقرير يرجع إلى اللجنة الملكية البريطانية مؤرخ في 18 أوت سنة 1601م، فإن "الاسبان سيحتلون في البداية ببجاية ليتوجهوا بعدها نحو مدينة الجزائر"، ويواصل التقرير مؤكداً "أن الملك الإسباني قد اختار خوان دوريا قائداً على الأسطول الاسباني الذي سيهاجم مدينة الجزائر، بالإضافة إلى التحاق الدون بيترو دي تولدوبوريا بهذا الأسطول بعد تعافيه من المرض"⁴.

¹Degramont, op.cit, p141.

² Ibid.

³مبارك الملي، مرجع سابق، ص143.

⁴Report of the Royal Commission on Historical Manuscripts, H.M. Stationery Office, 1906, P327.

وصل الأسطول الإسباني سواحل الجزائر شهر سبتمبر سنة 1601م، وتكوّن من سبعين سفينة وعشرة آلاف جندي التحقوا من إسبانيا وجنوة والدويلات الإيطالية¹، غير أن هذه الحملة كان مصيرها الفشل بسبب العاصفة التي ضربت الأسطول، ومنعت قادته من إنزال الجنود إلى البر الجزائري، ما دفع خوان دوريا إلى رفع الحصار والعودة إلى إسبانيا.²

عاد الخضر باشا حاكما على الجزائر للمرة الثالثة سنة 1603م، ولم ينتظر كثيرا حيث أعطى الأوامر بأن يهدم المركز التجاري الفرنسي بسبب شكوك حامت حوله تتعلق بتسليحه، فراسل الملك الفرنسي الباب العالي يطلب منه التدخل لإعادة بناء المركز، وردا على طلب الفرنسيين أرسل السلطان "محمد كوسة واليا جديدا على الجزائر مع أوامر باتخاذ التدابير اللازمة لإعادة بناء المركز التجاري الفرنسي، وكان أول ما أقدم عليه محمد كوسة هو قتل الخضر باشا"، غير أن هذا الإجراء لم يكن يعني شيئا أمام تعنت الديوان الذي رفض رفضا قاطعا إعادة بناء المركز رغم أوامر الباب العالي.

وراح الديوان يحرض على الثورة، حيث نجحت خطته وثار الجند ضد الباشا الجديد محمد كوسة مدّة ثمانية أيام كاملة انتهت بمقتله.

4- انتعاش النشاط البحري والاقتصادي الجزائري 1608-1632م:

أدى طرد المورسكيون من إسبانيا سنة 1609م، إلى هجرة العديد منهم إلى الجزائر والاستقرار على سواحلها، حيث أثروا بشكل جلي على الحياة الاقتصادية للبلاد عامة، سواء من خلال نشاطهم الدؤوب في الصناعة والزراعة أو دورهم في دعم البحرية الجزائرية.

¹John Emerich Edward et Alt, The Cambridge Modern History, Vol.3, Cambridge, The University Press, 1907, 327.

²Carey, Mathew, A short account of Algiers, and of its several wars against Spain, France, England, Holland, Venice, and other powers of Europe, from the usurpation of Barbarossa and the invasion of the Emperor Charles V. to the present time, Pennsylvania, 1794, p24.

كما نتج عن توقيع الطرفان الإنجليزي والإسباني معاهدة سلام سنة 1604م إلى إلزام بحارة الجانبين بعدم التعرض للطرف الآخر¹، كما فُرض على الكثير من رجال البحرية الإنجليزية مغادرة بريطانيا نحو بلدانهم الأصلية، في حين أصبح الكثير من البحارة مجرد عاطلين عن العمل، ولهذا فقد فرّ الكثير من هؤلاء الإنجليز نحو بلدان المغرب العربي مثلما وقع مع "القرصان وارد الذي انضم إلى البحرية التونسية، وتزامنت هجرة هؤلاء البحارة" مع التحاق القرصان الفرنسي الشهير دانسر بالبحرية الجزائرية سنة 1609م، وهكذا تعلم الرّياس الجزائريون على أيديهم طرق بناء السفن العالية القادرة على الإبحار في المحيط الأطلسي".²

وبهذا انتقل الجزائريون من مرحلة استخدام سفن الغاليه التي كانت تستعمل في البحر الأبيض المتوسط إلى السفن البحرية العالية *sea-going vessel* القادرة على مواجهة الأمواج العاتية في المحيط الأطلسي، حيث تشير التقارير إلى ارتفاع عدد قطع الأسطول الجزائري ليبلغ سنة 1617 خمسين سفينة، وتزايد العدد سنة 1625م ليصل الثمانين سفينة، كما أشارت بعض التقارير إلى ارتفاع العدد في بعض الأحيان ليبلغ الـ 120 سفينة³، وقد ساعدت هذه التطورات في دعم تواجد البحرية الجزائرية في المحيط الأطلسي، حيث تمكن الجزائريون من "أسر 1200 شخص من جزيرة ماديرا سنة 1617م"⁴ وأكثر من ثلاثمائة شخص من آيسلندا سنة 1627م⁵، في حين أسروا 273 شخصا من بالتييمور الواقعة في آيرلندا سنة

¹ قرياش بلقاسم، مرجع سابق، ص43.

²Jullian S. Corbett, England in The Mediterranean, Vol1 (2Vol), 2nd Ed, London:Longmans, Greend and Co 1916, p.14, 16.

³Alexander .H. de Groot, "Ottoman North Africa and the Dutch Republic in the seventeenth and eighteenth centuries", Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N.39, 1985, p131.

⁴Robert. C. Devis, Cristian slave, Muslum masters, White slavery in the Mediterranean, the Barbary coast and Italy, Palgrave Macmillan, 2003, p7.

⁵Erik Gobel, "The Danish-Algerian Sea Passes, 1747-1838: An Example of Extraterritorial Production if Human Security", Historical Social Research, Vol.35, N.04, 2010, p166.

1631م.¹ وتشير التسجيلات إلى أن 27% من الأسرى الذين جلبوا إلى الجزائر بين سنتي 1609-1619م، كانوا من مناطق تقع على سواحل المحيط الأطلسي.²

والحق أن انتعاش الخزينة الجزائرية كان مردّه إلى العديد من العوامل الأخرى أيضا ولعلّ أبرزها هو توتر العلاقات الهولندية الإسبانية "حيث أصدرت دولة هولندا مرسوما يقضي بإعطاء جوازات قرصنة لـ 130 قرصانا هولنديا بين سنتي 1606-1609م، مع أوامر بمهاجمة سفن الأعداء المتواجدة في البحر شرط أن يمنح هؤلاء القراصنة 20% من غنائمهم إلى الدولة و10% للقائد الأعلى للقوات المسلحة الهولندية، وقد بيعت غنائم هذه العائدات في الغالب بالسوق الجزائرية أو النابولية، باعتبارهما أكبر سوقين في البحر الأبيض المتوسط"³، يضاف إلى كل هذه الأوضاع المتعاقبة هو ذلك التصدع الذي طال العلاقات الجزائرية الفرنسية، بسبب "المدفعين اللذين استولى عليهما القرصان دانسر سالف الذكر بعد ارتداده عن خدمة الجزائريين لصالح الملك الفرنسي سنة 1610م"⁴، ولم يمضي على إعلان الجزائريين الحرب على الفرنسيين سوى بضع سنوات حتى خسروا الكثير من العتاد البحري والبشري.

لمس الفرنسيون جيّداً أن استمرار الحرب مع الجزائر، هي بمثابة الوبال على تجارتهم التي تضررت بالفعل بسبب الهجمات الجزائرية المتكررة على السفن الفرنسية، فطلبوا من الباشا حسن الشيخ إرسال لجنة للتفاوض، فما كان إلا أن "أرسل الباشا مبعوثين إلى فرنسا هما:

¹Theresa D. Marruy, op.cit, p16. 2 James Coleman, "The Barbary Corsairs in Ireland", The Journal of the Royal Society of Antiquaries of Ireland, Fifth Series, Vol.01, N.02, 1890, p167.

²Ellen G. Friedman, "North African Piracy on the Coasts of Spain in the seventeenth Century: A New Perspective on the Expulsion of the Moriscos", The International History Review, Vol.01, No.01, Jan 1979, p9.

³Alexander .H. de Groot, op.cit, p132.

⁴Ina Baghdiantz-MacCabe, Orientalism in Early Modern France: Eurasian Trade, Exoticism, and the Ancien Régime, New-York, Berg, 2008, p89.

كينان آغا وروزان، اللذان تمكنا من توقيع معاهدة مع الفرنسيين في مارس سنة 1619م، وتم الاتفاق على تبادل أسرى الجانبين وإرجاع المدفعين غير أن الفرنسيين لم يوفوا بعهدهم ورفضوا تسليم المدافع، وفي غمرة هذه المفاوضات استولى رجب رايس على مركب فرنسي ولخشيته من تأثير ذلك على المعاهدة الفرنسية الجزائرية راح يوارى سواته فأغرقه، إلا أنّ فرار اثنين من طاقمه عجل بثورة العامة ضدّ الوفد الجزائري المتواجد في مرسيليا في فيفري سنة 1620م فذبح 48 شخصا".¹

عاد تصدع العلاقات الفرنسية الجزائرية ليطفوا على السطح مرّة أخرى، غير أن الفرنسيين قادوا جهودا مضنية لإقناع الجزائريين بالتوصل إلى حل ينهي الخلاف القائم بين الجانبين، وفعلا اتفق الطرفان على توقيع معاهدة سلام بتاريخ الـ 19 سبتمبر سنة 1628م وأطلق سراح الأسرى وأرسل قنصل فرنسي إلى العاصمة الجزائرية، وأعيد بناء المركز التجاري الفرنسي بعد وساطات قادها نابليون مع الديوان.

غير أنّ هذه المعاهدة لم تستطع الصمود طويلا حيث أعلن الجزائريون الحرب على فرنسا مجددا سنة 1630م ، وذلك لعدم احترام الفرنسيين بنود المعاهدة السابقة، "ففي أواخر شهر نوفمبر سنة 1629م، استولت سفينة السفير لوني عند عودته من المغرب على سفينة جزائرية كلن يقودها الرايس محمد عوجية"، فثارت ثائرة الرّياس ضدّ كل ما هو فرنسي حيث يذكر ستانلي لان بول أن "الفترة الممتدة بين سنتي 1628-1634م قد شهدت استيلاء الجزائريين على ثمانين سفينة فرنسية قدرت عائداتها حسب الرّياس بما قيمته 4.752.000 ليفر فرنسي، وما عدده 1331 أسيرا فرنسيا".²

¹Degramont, op.cit, p155.

²Stanly Lane-Poole, op.cit, p234.

وفي الجهة المقابلة لم يكن الانجليز أكثر حفا من نظرائهم الفرنسيين، فرغم البداية الحسنة للعلاقات البريطانية الجزائرية في "عهد الباشا سليمان الذي راسل لأول مرة الملكة البريطانية إليزابيث الأولى بتاريخ الـ 20 ديسمبر سنة 1600م يطلب منها إرسال تجارها للعمل على الجزائر"، غير أن النداء الجزائري لم يلقى الأذان الصاغية، وهكذا سرعان ما راح الجزائريون يتدمرون من تعامل بعض "القباطنة الإنجليز مع السفن الجزائرية أمثال القبطان سامويل بينت وبوكولي، فرد الجزائريون بالاستيلاء على إحدى السفن الإنجليزية القادمة من البرازيل التي بلغت قيمة حمولتها 60 ألف سكودي، بالإضافة إلى 4000 سكودي ذهبي وارتفعت الأرقام بشكل مخيف جدا ليلبغ عدد السفن البريطانية التي أسرها الجزائريون بين سنتي 1609-1616م إلى 466 سفينة".¹

وردّ الإنجليز بإرسال حملة بحرية على الجزائر تحت قيادة روبرت مانسيل سنة 1620م، لأجل دفع الجزائريين على قبول الهيمنة البحرية الإنجليزية في المتوسط، فوصل مانسيل قبالة السواحل الجزائرية يوم 27 نوفمبر من نفس السنة، وطلب من "الباشا كوسة الشريف إطلاق سراح جميع الأسرى الإنجليز المتواجدين على الأراضي الجزائرية، غير أن الديوان رفض طلبه"، فغادر مانسيل السواحل الجزائرية دون أن يتعرض لها بأي سوء وذلك لقلّة في عدد قطع أسطوله، غير أنه عاد مجددا نحو السواحل الجزائرية يوم الـ 21 ماي من السنة الموالية وقصف المدينة دون تحقيق أي مكاسب فانسحب نحو أليكانت".²

5- انهيار نظام الباشوات 1633-1659م.

¹Playfair, Robert Lambert, The scourge of Christendom:annals of British relations withAlgiersprior to the French conquest, Smith, Elder &Company, 1884, p38.

²Gardiner, Samuel Rawson. Prince Charles and the Spanish Marriage (1617-1623): A Chapter of English History, Vol. 2, Hurst a. Blackett, 1869, p114.

لقد واجه الباشوات منذ سنة 1633م، عدة أزمات كادت تعصف بحكمهم، حيث اندلعت الثورات وغرقت جميع أقطار البلاد في الفوضى العارمة، في حين تراجعت عائدات الغنائم البحرية ولو بشكل تدريجي؛ خاصة بعد تحطم عدد هائل من قطع الأسطول الجزائري في البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى تغول الإنكشارية وتزايد نفوذها الذي أدى في نهاية الأمر إلى سقوط نظام الباشوات سنة 1659م، وإعلان نظام الآغاوات الذي وقع تحت سيطرة وقبضة الجيش.

5-1- ثورة الكراغلة سنة 1633.

كانت عائدات الغنائم من اختصاص الديوان، الذي رفض دفع جرايات الجنود وطالب الباشا حسين بتولي تسديدها؛ غير أن الباشا في حقيقة الأمر لم يكن يملك من المال سوى النذر اليسير، وبالكاد يستطيع أن يدفع به بعض أجور الإنكشارية، وهكذا ثارت "ثائرة الجند وحملوا القدور بشكل مقلوب في دلالة على رفض الوضع القائم، فاندلعت الثورة وعمت جميع شوارع المدينة".¹

فاستغل الكراغلة الوضع وأعلنوا الثورة على السلطة التركية شهر جويلية سنة 1633م، في حين يؤكد الأب دان أنّ "سبب الثورة مردّه إلى قرار أعضاء الديوان بطرد جميع الكراغلة من الجزائر، حيث أعطيت لهم مهلة يومين لجمع حقائبهم والمغادرة".²

¹ Degramont, op.cit, p177.

² Dan Pierre, Histoire De Barbarie, Et De Ses Corsaires. Des Royavmes, Et Des Villes D'alger, De Tvnis, De Salé, & De Tripoly, Ed.02, Paris, Imprimeur & Libraire ordinaire du Roy, 1649, p112.

ويذكر الأسير فرانسيس نايت¹ الذي كان متواجدا في المدينة يوم اندلاع الثورة، قائلاً: "قرر الكراغلة يوم الجمعة السيطرة على القصبة وامتلاك المدينة لأنفسهم، حيث لبسوا رداء نسائيا يغطي أجسادهم ووجوههم كما هو حال نساء البلد، ودخلوا القصبة وهم يصرخون "شرع الله"² في حين يؤكد ديغرامون أن الكراغلة قد تخفوا في زيّ فلاحين يوم الـ 01 جويلية سنة 1633م وهاجموا أفراد الإنكشارية³، الذين اعتقدوا في البداية أن قائد مملكة كوكو قد غزى المدينة من أجل تحرير ابنه ووالدته الأسيران لدى الأتراك"⁴.

استطاع الكراغلة السيطرة على حصن القصبة؛ لكن الجند الأتراك سرعان ما فرضوا حصارا عليها من الساعة السادسة وحتى العاشرة صباحا، ولأن اليوم هو يوم جمعة فإنّ الأتراك رفعوا الأعلام الخضراء، في إشارة إلى إرجاع جميع الممتلكات الخاصة لأصحابها الكراغلة دون التعرض لهم بأي أذى بشرط أن يسلموا أنفسهم للسلطات، غير أن الكراغلة رفضوا الانصياع لهذه المقترحات وقرروا مواصلة المقاومة.

ولما اشتدت عليهم وطأة الحصار وعلموا أنهم هالكون لا محالة، قاموا في شجاعة منقطعة النظير "بإحراق 20 ألف قنطار *Quentall* من البارود؛ فاحترقت ودمّرت جميع المنازل الواقعة على نطاق ميل كامل، وأظلمت وامتألت سماء المدينة بسحاب الغبار وعمّ الصخب في

¹ نايت فرانسيس: (1608-؟)، أسر نايت من قبل الجزائريين سنة 1631م، حيث اشتغل مجدفا على متن القوارب والسفن الحربية الجزائرية، وخلف لنا مذكرة شخصية حول فترة أسره، وكغيره من الأسرى فإنّ نايت يؤكد مرارا أن معاناته لم تكن جسدية أبدا بقدر ما كانت نفسية، "لقد خشيت دوما أن أتخلى عن مسيحتي... إنّي لأعرف أشخاصا تخلوا عن دينهم والتحقوا بالدين المحمدي نتيجة معاناتهم من العبودية". تمكن فرانسيس نايت و12 من أصحابه الفرار نحو كورفو سنة 1638م. ينظر:

David Booy, Francis Knight: On Being a Galley Slave, Routledge, 2002.

² Francis Knight, op.cit, p05.

³ Degramont, op.cit, p177.

⁴ Francis Knight, op.cit, p06.

الشوارع"¹، ويؤكد ديغرامون أن الانفجار قد تسبب في "خراب 500 مسكن ومقتل أكثر من عشرة آلاف نسمة،² فراح رجال الإنكشارية يثخنون القتل في الناجين من الكراغلة الذين فرّ منهم عدد كبير نحو قبائل زواوة.

ويخبرنا الأب دان أنّ الكراغلة الذين وقعوا في أيدي الأتراك قد عذبوا حتى الموت، "فمنهم من سحقت أضلعه وهو حي ينظر إلى جلّاده، وصلب آخرون على السلالم وقد سمّرت أذرعهم وأرجلهم، في حين ربطت أجساد بعضهم وسط سلاسل حديدية ضخمة طيلة أربعة أيام كاملة... ووضع البعض الآخر على الخازوق، حتى أن منهم من دفن حيا في التراب".³

5-3- تحطم الأسطول الجزائري سنة 1638.

خرج علي بتشنين على رأس سرية بحرية تكوّنت من 16 سفينة حربية سنة 1638م، وكان الهدف هو غزو مدينة لوريتو الإيطالية، غير أنّ رياحا عكسية دفعت الأسطول الجزائري نحو بلدة بولجيا التابعة لإمارة نابولي، فاستولى الجزائريون على عدد هائل من أسرى المنطقة، ليعطي بعدها بتشنين أوامره إلى الرياس بالتوجه نحو منطقة دالماسيا.⁴

وفي هذه الأثناء وصلت البلاط البندقي معلومات تفيد بأن الجزائريين "قد عاثوا فسادا في جميع السواحل الإيطالية وحتى البحر الادرياتيكي، فأرسلوا خلفهم أسطولا ضمّ 18 سفينة حربية تحت قيادة الأميرال مارينو كابيلو الذي أجبر بتشنين ورفاقه على اللجوء نحو سواحل فالونا بألبانيا، وقد كانت المنطقة خلال هذه الفترة تابعة للسلطان العثماني".⁵

¹ Francis Knight, op.cit, p07.

² Degramont, op.cit, p178.

³ Dan Pierre, op.cit, p113.

⁴ Foss John, op.cit, p101.

⁵ Stanley Lane-Poole, op.cit, p195.

راح كابيلو يطلق النار من مدافعه على خيم الجزائريين التي نصبت على الساحل، كما أصابت إحدى الطلاقات مسجد المدينة فأسقطته، وفي المقابل تسلّلت بعض سفن البنادق إلى الساحل واستولت على 16 سفينة جزائرية.¹

لقد لام البنادقة كابيلو واعتبروا فعلته في حق المنطقة الواقعة تحت النفوذ العثماني، أمرا غير مرغوب فيه، ولدرء فعلتهم همّوا إلى إغراق "جميع السفن الجزائرية باستثناء سفينة الأدميرال علي بتشنين التي احتفظوا بها كرمز انتصار"، غير أن العثمانيين سرعان ما راسلوا البلاط البندقي يطلبون فيه تعويضات بـ 500 ألف دوقة.²

5-3- ثورة الشرق الجزائري 1638-1643م.

وخلال هذا الجو الملبّد بسحاب الثورة، أعلن ابن الصخري التمرد هو الآخر وعمت ثورته كامل الشرق الجزائري، حيث تعود حيثياتها "إلى استدعاء الباي مراد حاكم قسنطينة محمد الصخري بوعكاز قائد مشيخة العرب وكبار عرشه، فحاكمهم مجلس الديوان وأصدر في حق محمد ابن الصخري وابنه وستة من كبار عشيرته الحكم بالموت، وكان ذلك سببا مباشرا في اندلاع الثورة التي قادها ابنه أحمد الصخري، وتلقى الباي مراد هزيمة نكراء في معركة سهل فيجل".³

تمكن يحيى آغا من إنهاء الثورة من خلال التوسط بشيخ أولاد عزام لدى الدواودة والحنانشة سنة 1639م، شرط أن تدفع القبيلتين ضريبة الزمة، غير أن الوضع في البايك لم يستقر بعد هذه التسوية حيث أعلن أولاد عبد المؤمن بدورهم الثورة على الأتراك في 12 أكتوبر سنة

¹ Foss John, op.cit, p101.

² Stanley Lane-Poole, op.cit, p195.

³ العنتري، مصدر سابق، ص37.

1642م، بسبب الاهانة التي مسّت كرامتهم من قبل أفراد الإنكشارية، واستمرت المعارك في شوارع مدينة قسنطينة يومين كاملين توفي خلالها خلق كثير من الناس¹ ، وقد تلت هذه الثورة إعلان أولاد مقران في مجانة التمرد على الأتراك سنة 1643م، ولم تنتهي هذه الثورة إلا حين تعهد الباشا برصالي شخصيا بإلغاء بعض الضرائب المفروضة على أفرادها.

6- سقوط الباشوات 1645-1659م.

أرسل السلطان العثماني في عهد محمد بورصالي مبعوثا إلى طائفة الرياس، يطلب منهم الالتحاق بالأسطول العثماني في حملته على مالطة، غير أن "علي بتشنين قائد الأسطول رفض الإنصياع لأوامر السلطان بسبب الكارثة التي وقعت للأسطول العثماني في فالونا.

والحق أن هذه الهزيمة كانت القشة التي قسمت ظهر البعير، حيث أن الكثير من القباطنة أصبحوا خارج الخدمة، ولم يجد الأسطول الجزائري توازنه بعد هذه الخيبة "إلا في سنة 1641م عندما تمكن بتشنين من تجهيز أسطول يتكون من 65 سفينة حربية جزائرية"².

أرسل الباب العالي مبعوثين لقتل علي، فثار السكان على الباشا بورصالي والمبعوثين، وفرّ ثلاثتهم نحو ضريح الولي عبد الرحمن الثعالبي، إلا أن أخرجهم علي من الضريح تحت حمايته. وما إن لمس العثمانيون قوّة ونفوذ علي حتى سارعوا إلى المراوغة، فأرسلوا الباشا أحمد خلفا لبورصالي، وعيّنوا بتشنين قائدا أعلى للبحرية العثمانية³، وما هي إلا أيا من وصول أحمد إلى الجزائر حتى توفي علي بتشنين، فحامت الشكوك حول الباشا الجديد، واتهم بدسّ السم

¹ المصدر نفسه، ص38.

² Stanley, op.cit, p196.

³ مبارك الملي، مرجع سابق، 168.

لعلي بغية التخلص منه¹، ويخبرنا ديغرامون قصة طريفة عن شقيق علي، الذي ورثه وراح يفتخر "بأمواله افتخارا مبالغا به، حتى أنه لم يكن يخرج من منزله إلا وهو محاط بمائة من الفرسان"².

والحقيقة أن وفاة علي بتشنين كان بداية النهاية لعهد الباشوات حيث تكالبت الأزمات على البلاد، انطلاقا من الهزيمة التي تكبدها الأسطول الجزائري في مواجهة الحلف البندقي - المالطي يوم الـ 16 فيفري سنة 1647م، أين استشهد في المعارك 250 بحارا جزائريا وأسر 150 شخصا آخرين إضافة إلى خسارة الكثير من القطع البحرية، ولم يكد يفق الجزائريون من هذه النكسة حتى قاد الملك المغربي محمد مولاي حملة على الغرب الجزائري انطلاقا من سجلماسة سنة 1648م³، ولأن الأزمات لا تأتي فرادى فقد ضرب الطاعون الذي ضرب البلد بين سنتي 1650-1654م، ثم 1654-1666م⁴.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد حيث أرسل الإنجليز أسطولا مكونا من 24 قطعة بحرية، تحت قيادة روبرت بلايك إلى البحر الأبيض المتوسط سنة 1655م، وأعطيت له الأوامر باستهداف أي سفينة جزائرية يقابلها في البحر، ولسوء حظ الجزائريين⁵، فقد تمكن بلايك من إغراق تسع سفن جزائرية بالقرب من سواحل بورتو فارينا، وتحطيم الكثير من مدافع التحصينات

¹ عزيز سامح ألتز، مرجع سابق، ص 370.

² Degramont, op.cit, p194.

³ صالح عباد، مرجع سابق، ص 126.

⁴ فلة موساوي القشاعي، وباء الطاعون في الجزائر العثمانية، دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله، دراسات إنسانية، ص 140.

⁵ Baumber, M., General at Sea: Robert Blake and the 17th-Century Revolution in Naval Warfare, 1972, p146.

الموجودة على سواحل العاصمة، أين استطاع الحصول على بعض الترضيات من الجزائريين والعودة إلى لندن.¹

وأمام هذه الأوضاع المضطربة والأزمات التي كانت تعصف بطائفة الرياس، تمرد رجال الإنكشارية على الحكم، متحججين بتأخر جرايات الجند، فألقوا القبض على الباشا إبراهيم وزجّوا به في السجن، حيث اجتمع الديوان على جناح السرعة وتقرر إنهاء نظام الباشوات مع الإبقاء على ممثل السلطان دون أن يكون له أي تأثير على سير شؤون الدولة، وعيّن الأغا خليل أول آغا على الجزائر.

7- مميزات عهد الباشوات:

تميز حكم الباشوات بالآتي:

- دام عهد الباشوات 72 سنة كاملة.

- تولى حكم الباشوات ثلاثون واليا، أين كان الباشا يحكم لمدة ثلاث سنوات ويعيّن من الأستانة مباشرة، ولأن المدة قصيرة فقد انصرف الكثير من هؤلاء الباشوات إلى السلب والنهب ومحاولة الاغتناء وجمع الثروة.²

¹ Matar Nabil, British Captives from the Mediterranean to the Atlantic, 1563- 1760, Brill, 2014, p106.

² أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847، ج1، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2004، ص35.

- فصل الحكم العثماني في المغرب العربي والذي كان مقره سابقا بالجزائر، وتعيين باشا تركي في كل من الجزائر وتونس وطرابلس، يحكم كل واحدة منها مبعوث أو أحد قادة الإنكشارية أو البحرية.¹

- تزامن عهد الباشوات مع ما يسميه الغرب قرن "القرصنة"، أين برز فيه الرياس الجزائريون بشكل لافت، فبعد هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو سنة 1571م، وهزيمة الإسبان في معركة الأرمادا ضد الانجليز سنة 1588م، تراجعت قواتهما وأفسح المجال لبحارتهما أو ما يسميه الغرب "القرصنة" *Corsairs* للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ومهاجمة مناطق وتجارة الدول المعادية، ولقد كانت هذه المرحلة أحد أكثر المراحل التي توهجت فيها عائدات البحرية الجزائرية، أين تمكن الجزائريون من الوصول إلى جزيرة آيسلندا سنة 1627م،² وأسر 242 آيسلنديا، كما قادوا هجوما آخر على بالتيمور الواقعة في آيرلندا سنة 1631م وتمكنوا من أسر حوالي 273 أسيرا آيرلنديا.³

- بداية الانفصال عن الباب العالي ولو تدريجيا، ففي سنة 1604م وقع الهولنديون معاهدة سلام مع الجزائر، حيث كانت الدول الأوروبية في السابق توقع المعاهدات مع الدولة العثمانية دون الحاجة إلى الجزائر.⁴

¹ أعمار بوحوش، مرجع سابق، ص 63.

² Erik Gobel, "The Danish-Algerian Sea Passes, 1747-1838: An Example of Extraterritorial Production if Human Security", Historical Social Research, Vol.35, N.04, 2010, p166.

³ James Coleman, " The Barbary Corsairs in Ireland", The Journal of the Royal Society of Antiquaries of Ireland, Fifth Series, Vol.01, N.02, 1890, p167.

⁴ قرياش بلقاسم، مرجع سابق، ص 60.

- كان الحكم سجالا بين الإنكشارية ورجال البحرية، وهذا خلق صراعا مستمرا سيؤثر لقرون في طبيعة الحكم العثماني في الجزائر، "حيث تم قتل العديد من الباشوات بسبب الصراع القائم على السلطة، مثل: خضر باشا الذي أعدمه محمد قوصة باشا، ونفس الباشا محمد قوصة ما مقتولا هو أيضا".¹

- اعتناق عدد هائل من الأسرى المسيحيين للإسلام، بشكل جعل الكنيسة تدق ناقوس الخطر، حيث تقدم لنا بعض الإحصاءات ان عدد الأسرى الذين اعتنقوا الإسلام قد بلغ ثلاثمائة ألف خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1550-1700م.²

-لم يشهد عهد الباشا والتوسعات ولا فتوحات داخلية جديدة، إلا أنه وعلى الصعيد الخارجي شهد نمو ملحوظا للبحرية الجزائرية حيث بلغ نشاطها سواحل آيسلندا وبالتيمور سنتي 1627م و1631م، وقد تزامن هذا النشاط مع ما يسميه الغرب "العهد الذهبي للقرصنة 1580-1680م"

¹ مبارك الملي، ج3، مرجع سابق، ص149.

² Alan G. Jamieson, Lords of Sea, a History of the Barbary Corsairs, London:reaktion books ltd, 2012, p.60.

الماضرة الخامسة

عهد الأنوات 1659-1671م

- 1- خليل أفا.
- 2- رمضان بولكباشي.
- 3- شعبان أفا.
- 4- علي أفا.
- 5- مميرات عهد الأنوات 1659-1671م.

ثارت الإنكشارية على الباشا إبراهيم بعد أن استاءت من الوضعية المالية للبلد، رغم محاولات الباشا ابتزاز "أغنياء المدينة وفرض غرامات إضافية على التجار والحرفيين... الخ" كي يدفع مستحقات الإنكشارية، لكن في النهاية قام قادة الثورة برميهِ في غياهب السجن في جوان سنة 1659م، "وطردوا ممثل الباب العالي علي باشا الذي طلب انضمام الأسطول الجزائري إلى الأسطول الهامبوني في كريت".¹⁵⁴ ويذكر عزيز سامح أتر أن الإنكشارية وبعد اجتماعها في الديوان قررت وضع الباشا وأتباعه في غليوطة وإرسالهم إلى أزمير... وردّ الصدر الأعظم كوبرلو محمد باشا برسالة إلى الإنكشارية يقول فيها: "أخيرا لن نرسل إليكم واليا، بايعوا من تريدون، السلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم، فالجزائر إن كانت وإن لم تكن شيء واحد....".¹⁵⁵

اتفق أعضاء الديوان على إحداث نظام جديد تكون فيه السلطة مطلقة للجيش، حيث يعين الحاكم من الأغواط رؤساء فرقة الإنكشارية، شرط ألا يتجاوز نصيب حكم الأغا الواحد شهرين، غير أنّ نظاما مثل هذا غرس بوادر سقوطه في نشأته، ذلك أن الأغا لم تكن تكفيه هذه المدّة القصيرة على سدّة الحكم، ما جعل أغلبهم يرفضون التنازل عن السلطة في الفترة الزمنية المحددة والتي تم الاتفاق عليها مسبقا.

¹⁵⁴ محرز أمين، الجزائر في عهد الأغوات 1659-1671م، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة الجزائر، 2007-2008، ص77-78.

¹⁵⁵ عزيز سامح أتر، مرجع سابق، ص237.

1- خليل آغا:

عين خليل آغا البولكباشي حاكما على الجزائر بصفته قائد الثورة في ذي القعدة من سنة 1069هـ الموافق لـ جويلية سنة 1659م¹⁵⁶، وكان على الأغا مواجهة انتفاضة السكان، حيث " رفض السكان دفع الضريبة وتعمّ الثورة الكثير من مناطق الشرق الجزائري"،¹⁵⁷ بسبب تدمير الأتراك لحصن الباستيون.

والحق أنّ خليل باشا وعلى قصر فترة حكمه، إلاّ أنّه استطاع تنظيم شؤون الدولة بشكل لم يقدر عليه المتأخرون من الباشوات، حيث شهد حكمه توفير موارد ماديّة معتبرة للخزينة، "أين قام بإلغاء الضرائب المجحفة التي فرضها سابقوه على التجار المحليين والأجانب وخفض نسبة التعريفات الجمركية المفروضة على البضائع، ولم تتوقف قراراته عند هذا الحد فقط؛ بل اتخذ إجراءات جد صارمة فيما يتعلّق بجباية المحلّات، وعزل الكثير من القواد المتواطئين وغير النزهاء في عملية جمع الضرائب من الساكنة المحلية". ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد تمكن خليل من تأمين "جرايات الجند في وقتها المحدد، وحصل فائض في الخزينة، الأمر الذي جعله محلّ احترام رجال الإنكشارية.¹⁵⁸

سعى الأغا إلى إصلاح الوضع مع الباب العالي حيث أرسل وفدا إلى أزمير يطلب الصفح من السلطان، غير أنّ الصدر الأعظم لم يقبل شفاعتهم، وأمر جميع الولايات العثمانية

¹⁵⁶ أورد ابن المفتي أن تاريخ تسلم خليل آغا مقاليد الحكم يرجع إلى سنة 1070هـ غير أن الأصح هو 1069هـ. ينظر: ابن المفتي، مصدر سابق، ص54.

¹⁵⁷ De Gramont, op.cit, p210.

¹⁵⁸ أمين محرز، مرجع ساب، ص59.

بأن تمتنع عن التجارة أو التجنيد أو بيع السلاح أو استقبال الحجاج الجزائريين¹⁵⁹، ولهذا سارع الجزائريون وهم مرعوبين إلى "إخراج إبراهيم باشا من السجن" وإرجاعه إلى منصب، واعترفوا بمنصب الباشا رغم عدم إرسال الباب العالي أي ممثل عنه، حيث "تثبت إحدى رسائل القنصل الفرنسي بما لا يدع مجالاً للشك أن خليل قد حافظ على منصب الباشا".¹⁶⁰

غير أن خليل أغا هذا ورغم إصلاحاته الكثيرة إلا أنه انفرد بالحكم لنفسه ورفض التنازل عن السلطة بعد انقضاء فترة ولايته المقدّرة بشهرين، وهذا حال كل الأغوات الذين تعاقبوا على الحكم الأمر الذي أدى في النهاية إلى مقتلهم جميعاً، وتشير بعض التسجيلات إلى أن "بعض المعارضين لحكمه تسللوا إلى مقر الحكم وقاموا بقتله شهر أكتوبر سنة 1659م، ويذهب آخرون إلى أن الأغا قد قتل في إحدى أزقة العاصمة الجزائرية على يد قتلة مأجورين يعملون لصالح كبراء الدولة، مع أن خليل كان لا يزال يحظى بدعم الديوان نفسه" الذي قرر "الموافقة على تجديد عهده لعام آخر"، ويرى صاحب كتاب "مرآة المحبة المسيحية" أن الرأي السائد في الأوساط العامة للجنود سنة 1662م، هو أن المتوفى خليل كان يميل إلى رفاهية الجنود ودعم الخزينة حيث اتفق الجميع على أحقيته بالحكم".¹⁶¹

¹⁵⁹ عزيز سامح أتر، ص 237-238.

¹⁶⁰ Boyer Pierre. La révolution dite des "Aghas" dans la régence d'Alger (1659-1671). In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°13-14, 1973, p163.

¹⁶¹ Ibid, p164.

2- رمضان بولكباشي:

تولى رمضان بولكباشي العرش خلفا لخليل أغا، أيضا "بيورك رمضان، وكان أول ما قام به هو بناء حصن رأس تافورة"¹⁶²، والمسجد الجديد بالجزائر العاصمة.

وقد شهد عهد رمضان أغا استمرار الثورة التي اندلعت في الشرق الجزائري خلال عهد سابقه بسبب هدم المركز التجاري الفرنسي حيث رفضت الساكنة المحلية دفع الضريبة، كما أعلن السي أحد بن أحمد الاستقلال عن الاتراك واستقر بنفسه في تامغوت (جيجل).¹⁶³

ورغم كل هذه المشاكل الداخليّة إلا أنّها لم تكن مهمّة بالنسبة للأغا بقدر ما كان مهمّا إعادة بعث العلاقات مع الباب العالي؛ خاصة وأنّ الجزائر قد عانت من قطع هذه العلاقات بالإضافة إلى تدمير الساكنة المحلية من الوضع، حيث استغل رمضان وفاة الصدر الأعظم محمد كوبرولو وتعيين مصطفى قارة خلفا له، وبعث برسالة إلى السلطان العثماني أوائل سنة 1661م يقول له فيها: "إنك لو أرسلت لنا كلبا لقبلاه باشا علينا".¹⁶⁴

وافق السلطان على طلب الجزائريين وأرسل إسماعيل بوشناق باشا جديدا على الجزائر، وتشير بعض التقارير إلى أنّ الجزائريين قد "أنفقوا من أجل ترقيع العلاقات مع الباب العالي حوالي الـ 10 آلاف دوقية".¹⁶⁵

والواقع أن إسماعيل باشا هذا لم يكن سوى ممثلا عن الباب العالي، حيث لم يمنحه الجزائريون أيّ صلاحيات تنفيذية، فقد آلت جميع الصلاحيات إلى الآغا والديوان.

¹⁶² ابن المفتي، مصدر سابق، ص54.

¹⁶³ Degramont, op.cit, p210-211.

¹⁶⁴ عزيز سامح ألتز، مرجع سابق، 237.

¹⁶⁵ Boyer pierre, op.cit, p164.

وفي مقابل هذه الأزمات التي كانت تعيشها الجزائر، نشطت البحرية في عهد الآغا رمضان بشكل غير مسبوق، فأحصت سلطات مارسيليا خسائر قدّرت بـ مليون وأربعمائة ألف إيكة¹⁶⁶، في حين خسر الإيطاليون مليوني ليرة وخمسمائة أسير، كما استطاع الجزائريون الاستيلاء على تسع مراكب هولندية واثنى عشرة مركبا إنجليزية واثنى عشر مركبا فرنسا وإيطاليا¹⁶⁷، ولوقف هذه العمليات سارع الفرنسيون إلى إرسال بيار دي دومينيك إلى الجزائر العاصمة من أجل التوصل إلى اتفاق ينهي الخلاف القائم، وفعلا "اتفق الطرفان على إعادة بناء الباستيون يوم الـ 02 فيفري سنة 1661م"¹⁶⁸، غير أن الملك الفرنسي رفض التوقيع على المعاهدة، في حين ألحّ القنصل الفرنسي في الجزائر فيليب لوفاشي على الفرنسيين "إرسال عمارة ضد الجزائر تعطي انطباعا عن عظمة الملك"¹⁶⁹.

وهكذا اتفق ديوان الملك على تسليح عشرة سفن حربية تحت قياد الفارس بول بتاريخ الـ 02 ماي سنة 1661م، هدفها استهداف السفن الجزائرية المتواجدة في البحر الأبيض المتوسط.¹⁷⁰

وعلى عكس الفرنسيين فقد اختار الإنجليز الطريقة السهلة، حيث "قرر الملك البريطاني تشارلز إرسال إيرل وينشيلسي سفيرا إلى القسطنطينية أملا في الحصول على ترقيات من السلطان لإقامة السلم مع الجزائريين، غير أنه سرعان ما غير رأيه واتجه مباشرة نحو الجزائر

¹⁶⁶ Degramont, op.cit, p210.

¹⁶⁷ مبارك الميلبي، مرجع سابق، ص173.

¹⁶⁸ Boyer Pierre, op.cit, p164.

¹⁶⁹ Charles-Roux, F. France et Afrique du Nord avant 1830, Librairie Félix Alcan, Paris, 1932, p143.

¹⁷⁰ Ibid.

بعد أن تمكن القنصل البريطاني براون من الحصول على ترضيات من أجل إقامة السلم مع الجزائريين".¹⁷¹

وصل وينشيلسي الجزائر على متن السفينة الحربية بلايموث، ووقعت المعاهدة في ديسمبر سنة 1660م، والتي تضمنت:¹⁷² - عدم تعرض الجزائريين للممتلكات والسفن البريطانية التي غرقت على سواحل الجزائر. - لا يدفع القنصل ولا المواطنون البريطانيون ديون مواطنين آخرين، إلا إذا وافق هؤلاء على ذلك عن طيب خاطر. - يمكن للجزائريين إرسال مفتشين إلى السفن البريطانية، أين يحق لهم حجز أي ممتلكات أو غرباء كانوا على متنها.

لم يستمر حكم رمضان آغا طويلا، فقد هاجت الإنكشارية ضده وقاتلته وسط سوق البادستان يوم السبت 15 محرم سنة 1072هـ الموافق لـ 09 سبتمبر سنة 1661م، ويذكر دارندا حيثيات وفاته بقوله: "لقد قتل رمضان آغا رفقة ثمانية وعشرين شخصا من مجلسه، حيث رميت أجسادهم إلى الكلاب في الشوارع، وأما سبب الثورة فيرجع إلى محاولة رمضان الاحتفاظ بالحصّة الأكبر لإحدى غنائم القمح".¹⁷³

3- شعبان آغا:

تولى شعبان آغا الحكم خلفا لرمضان آغا، وهو "مهتد برتغالي الأصل، ورجل طيب وعادل وحكيم، فضلا عن كونه رجلا غنيا جدا"¹⁷⁴، ويروي دارندا عن تعيين شعبان آغا قوله: "قام الجنود بإخراج أحد الباشوات -إبراهيم آغا- من السجن وتعيينه آغا جديدا على البلاد،

¹⁷¹ Playfair, Scourage..., op.cit, p80.

¹⁷² Ibid, p80.

¹⁷³ D'Aranda, op.cit, p101.

¹⁷⁴ أمين محرز، مرجع سابق، ص68.

وكان أول ما قام به هذا الباشا هو استتجار قاتلين مقابل عشرة آلاف قطعة نقدية لقتل أحد الأغوات -يقصد الأغا شعبان!- غير أن الأخير تفتن لمكيدته، واشتكى إلى الديوان الذي قام على الفور بإلقاء القبض عليه والزجّ به في السجن، في الوقت الذي همّ فيه الأغا شعبان يستغل الوضع أين عرض نفسه على الديوان ليعيّنه حاكما على البلد، ووعد بأن يرفع جريات الجند إلى الضعف كل شهر، فوافق الديوان على طلبه ونصّب حاكما على البلد".¹⁷⁵

وفي عهد شعبان أغا توترت علاقة السلطة المركزية في الجزائر العاصمة مع باي قسنطينة، والحق أن الوضع الداخلي في فترة حكم هذا الأغا شهد كوارث عديدة، حيث استمرت الثورة في كامل الشرق الجزائري، وانتشر الطاعون الذي أودى بحياة الكثير من الناس، وحسب بعض التقارير فقد أودى "بحياة عشرة آلاف أسير مسيحي".¹⁷⁶

وأما على الصعيد الخارجي فقد شهدت العلاقات الجزائرية الفرنسية توترا طيلة حكم شعبان أغا، حيث "عيّن دوق بيفورت على رأس عشرين سفينة قرصانية فرنسية ربيع سنة 1662م، وأوكلت له مهمة مهاجمة السفن الجزائرية المتواجدة في البحر الأبيض المتوسط"¹⁷⁷، كما قاد الفرنسيون في العام الموالي حملة ضد القل، فشبت على سواحل المدينة معركة عنيفة بين القوات البحرية الفرنسية والجزائرية، وانتهت بخسارة الجزائريين نحو عشرين سفينة، ورغم هذه الانتصارات الفرنسية إلا أنّ الحملة على القل فشلت، وقرر الأسطول الفرنسي التوجه نحو ميناء مدينة الجزائر وإضرام النار في قطعه، غير أن الوحدات الجزائرية تقطنت لهذه المحاولة وأفشلتها.¹⁷⁸

¹⁷⁵ D'Aranda, op.cit, p102.

¹⁷⁶ Boyer, op.cit, p166.

¹⁷⁷ Degrammont, op.cit, p212.

¹⁷⁸ مبارك الملي، مرجع سابق، ص174-175.

ولا تأتي الأزمات فرادى فقد أدى تحطّم خلد الجزائر العاصمة بسبب العواصف والزلازل، إلى تشجّع الهولنديين لاستغلال الوضع وإرسال حملة بحرية ضدّ الجزائر من أجل إرغام السلطات على توقيع السلم، وفعلا وصل رويتر الجزائر على رأس تسعة بوارج بتاريخ الـ 22 مارس سنة 1662م، وتمكن من توقيع السلم مع الديوان يوم الـ 26 مارس". ولم تختلف المعاهدة كثيرا عن المعاهدات الأوروبية السابقة في محتواها؛ خاصة ما تعلق بالتجارة وتفتيش السفن، فقد أكدت المادة الثانية والثامنة أحقية بحارة الجزائر في "تفتيش المراكب الهولندية والاستيلاء على ممتلكات مواطني الدول المعادية للجزائر، وأن السفن التجارية الهولندية مطالبة بأن لا تحمل على متنها إلاّ الفنلنديين، الفرنسيين، الإنجليز والألمان ومن بينهم الآيرلنديين، السويديين، النرويجيين وكل الشعوب ذات الانتماء الألماني، وعدى هذا فإن كل الشعوب الأخرى سواء كانوا رحالة أو تجارا من ليسوا في خدمة السفينة يعتبرون قانونيا غنائم للجزائريين"¹⁷⁹، في حين أشارت المادة التاسعة إلى أنّه وفي حالة "وجود مواطنين هولنديين على متن السفن المعادية التي أسرها الجزائريون، فإنهم يسلمون إلى القنصل الهولندي بالمدينة"؛ ويؤكد "محمد توتنشو أن البند السابق لم يرد ذكره في النسخة العثمانية"¹⁸⁰.

غير أنّ السلطة الهولندية رأت أنّ المعاهدة السابقة "قاسية جدّا"، ورفض الملك المصادقة عليها؛ خاصة البند المتعلق بتفتيش السفن، وأعطيت أوامر جديدة إلى روتير بالعودة إلى الجزائر، وفعلا غادر الأخير هولندا قافلا باتجاه الجزائر أواسط شهر جوان، حيث اجتمع بالديوان ووقعت المعاهدة في 22 نوفمبر من نفس السنة.

¹⁷⁹ Bülent Arı, Levent Kirval, Four Centuries Of Diplomatic And Economic Relations Between Turkey And The Netherlands (1612-2012), Panteia Press, 2014, P.124.

¹⁸⁰ Bülent Arı, p.132.

احتوت المعاهدة على 13 بندا، حيث أشارت المادة الثانية إلى ضرورة احترام أسعار بيع الأسرى الهولنديين عند قيام دولة هولندا بعمليات افتداء، ذلك أن البيع يكون بسعر البادستان [سوق بيع الأسرى]، في حين عالج البند الثالث التعاون بين الدولتين حيث يستطيع الجزائريون أن يطلبوا أي سلعة من هولندا وسيتم إرسالها في سفن تجارية، وأما المادة الخامسة فقد تطرقت لقضية تحطم السفن الهولندية على السواحل حيث لا يحق للجزائريين أسر أطقمها ولا الاستيلاء على ممتلكاتها، وعالجت المادة السابعة والعاشره قضية أسر السفن المعادية، فإن وجد على متنها أسرى هولنديون وأظهروا وثائقهم يجب إخلاء سبيلهم على الفور، كما يجب على تحرير طاقم السفن الهولندية أن يظهرها جوازات سفرهم عند مقابلة الجزائريين في البحر؛ وأكدت المادة الثامنة أن تتعامل العدالة الجزائرية [المجلس الجزائري] بعدل في حالة وقوع خلاف بين هولندي وجزائري، في الوقت الذي أشارت فيه المادة الثالثة عشر إلى وجوب حمل الجزائريين جواز سفر هولندي ممضى من القنصل الهولندي في الجزائر، وذلك لتمييز السفن الجزائرية عن تلك المعادية للسلطة الهولندية.¹⁸¹

توفي شعبان آغا في ظروف غامضة، غير أن بعض المصادر "تشير إلى أنه قتل على يد الإنكشارية"¹⁸² في الأشهر الأولى من سنة 1664م، وأما عن حيثيات مقتله فقد اختلف التسجيلات حولها، حيث يرجعه البعض إلى تأخر أموال الفدية التي وعد بها دي رويتر الجزائريين، في حين يرى آخرون إلى أن مقتله يعود إلى ثورة الإنكشارية بسبب تجهيز الفرنسيين حملة بحرية ضدّ السواحل الجزائرية.

غير أن سبب وفاته في الحقيقة يرجع إلى وقائع متعددة فبالإضافة إلى ما سبق، فإن الوضع الداخلي كان محتتماً وأشد صعوبة من الوضع الخارجي، حيث عمّت الثورة كامل

¹⁸¹ Bülent Ari, p.134.

¹⁸² Boyer, op.cit, p166.

الشرق الجزائري، كما أن الطاعون الذي تفشى في المدينة سنة 1663م، زاد الطينة بلّة فقد فتك بخلق كثير، حتى أن بعض التقارير تشير إلى وفاة 60 ألفاً من الجزائريين نتيجة الطاعون".¹⁸³

4- علي أغا:

تعتبر فترة حكم علي أغا أطول فترات عهد الأغوات، "ولا نعرف تاريخ توليه الحكم بالضبط حيث تختلف المصادر في توثيقها، فيشير بعضها إلى أن تولي علي أغا الحكم يرجع إلى سنة 1664م، في حين يؤكد فريق آخر أن توليته تعود لسنة 1665م أو 1666م".¹⁸⁴

استأثر علي بالحكم لنفسه، وأوجد لقب الحاكم، حيث احتفظ بجميع السلطات التنفيذية بشكل شبه مطلق.¹⁸⁵

واجه حكمه مشاكل داخلية عسيرة حيث ثار الأعراب المقيمون على ضواحي مدينة الجزائر سنة 1668م، ولم يمضي وقت طويل حتى اندلعت نيران الثورة في بلاد القبائل، ولأن المشاكل لا تأتي فرادي فقد ضرب الطاعون الجزائر وهزّ أركانها أيضاً.¹⁸⁶

وأما على الصعيد الخارجي فقد قاد الفرنسيون حملة على جيجل سنة 1664م، "ادعوا من خلالها أن الهدف هو إنشاء قاعدة جد متقدمة تتوسط الجزائر وتونس من أجل مهاجمة القراصنة المغاربة"، غير أن الواقع يثبت أن الفرنسيين كانوا يسعون إلى إنشاء قاعدة في جيجل

¹⁸³ أمين محرز، مرجع سابق، ص76.

¹⁸⁴ Boyer, op.cit, p167.

¹⁸⁵ Ibid, p167.

¹⁸⁶ Degramlont, op.cit, p217.

تساعدهم على دعم تجارتهم الماركنتيلية في البحر الأبيض المتوسط، وذلك استثنائاً بالإنجليزية الذين استولوا على طنجة سنة 1662م.

اختار الفرنسيون في النهاية جيجل كقاعدة لهم على الرغم من أنّ القواعد التجارية الفرنسية تركّزت في بجاية وعنابة وستورا، ويبدو أنّ "خلفاً قد وقع بين قائد الحملة الدوق بيفورت والمهندس المسؤول عن التحصينات المدعو كونت دي غاداني الذي أصرّ على احتلال بجاية".¹⁸⁷

أقلع الأسطول الفرنسي رفقة بعض السفن المالطية من ميناء طولون بتاريخ الـ 02 جويلية سنة 1664م، وبلغ سواحل بجاية في 21 جويلية، حيث هاجموا التحصينات التركية المتواجدة بالمدينة، واستولوا على المدينة يوم الـ 23 من نفس الشهر،¹⁸⁸ ونصبوا العلم الفرنسي والصليب على مئذنة المدينة، وهذا ما يثبت أن الحملة لم تكن مجرد حملة عسكرية فقط، بل هي حملة صليبية ضد دولة مسلمة.

وردّ الجزائريون في اليوم الموالي بإرسال حملة على القلعة، حيث "خرج القائد المالطي شارل فيليكس دي غالين لملاقاتها، وبعد اشتباكات دامت لساعات استطاع المالطيون إجبار الجزائريين على التراجع بعد أن خسروا الكثير من الجند، في حين قتل أربعمئة مالطي".¹⁸⁹

¹⁸⁷ Œuvres de Louis XIV: Lettres particulières, Vol. 05, Paris: 1806, p238.

¹⁸⁸ Jean Scholastique Pitton, Histoire De La Ville D'Aix, Capitale De La Provence ..., Charles David Imprimeur du Roy, 1666, p495.

¹⁸⁹ Ibid.

لم يهنا الفرنسيون كثيرا بمستقرهم الجديد، حيث قاد الجزائريون مجددا حملة على "جيجل" في 29 أكتوبر من نفس السنة، استطاعوا من خلالها إبادة الحامية الفرنسية وأسر الكثير من أفرادها، أين خسر الفرنسيون ألفا وأربعمائة قتيل على أرض المعركة".¹⁹⁰

كان لهذا الانتصار وقعه البالغ في العلاقات الفرنسية الجزائرية، حيث سارع الفرنسيون إلى عقد الصلح مع الجزائريين، وفعلا توصل الطرفان إلى اتفاق تم بموجبه توقيع معاهدة سلام "يوم 17 ماي سنة 1666، والتي بمقتضاها "استرجع الفرنسيون مركزهم التجاري".¹⁹¹

وما إن تفرغ الجزائريون من مشاكل الطرف الفرنسي حتى أعطى السلطان العثماني أوامره إلى قادة الأسطول الجزائري لأجل اللحاق بالأسطول العثماني في خانية -كريت-، وفعلا ألقع الأسطول ملبيا النداء غير أن البنادقة تمكنوا من إلحاق هزيمة نكراء بالجزائريين وإجباره على العودة إلى الجزائر، وفي طريقه استولى الرياس على "بعض السفن التجارية الفرنسية، إلا أن الفرنسيين أرسلوا إلى الجزائر الماركيز دي مارتيل الذي استطاع استعادة ما أخذه الرياس".¹⁹²

وفي عهد الأغا علي توترت العلاقات الجزائرية البريطانية، حيث بعث الملك البريطاني توماس أليين إلى الجزائر في أوت سنة 1669م، أملا في التوصل إلى اتفاق مع الجزائريين ينهي الخلاف بين الفريقين، غير أن الأخير لم يستطع إقناع الأغا علي، "ليعود مجددا إلى الجزائر في شهر سبتمبر من نفس السنة ويقبل على قصف المدينة، وردت السلطات الجزائرية

¹⁹⁰ جودي زكريا، الحملة الفرنسية على مدينة جيجل سنة 1664م، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، م.03، ع.01، جانفي 2021، ص.129.

¹⁹¹ مبارك الملي، مرجع سابق، ص.178.

¹⁹² Degramlont, op.cit, p217.

بإلقاء القبض على القنصل الإنجليزي ويليامسان، وإلقائه في السجن رغم أن الأخير كان أحد مقربي علي أغا.¹⁹³

أعلن الإنجليز الحرب على الجزائر، واستولوا على ستة سفن جزائرية في 12 أوت سنة 1670م، كما قادوا شهر ماي سنة 1671م حملة على ساحل بجاية، واستطاعوا تدمير سبع بوارج جزائرية ذات الثمانية والعشرين مدفعا.¹⁹⁴

كان لهذه الخسائر المتتالية أثرها البالغ على الرياس الذين أعلنوا الثورة ضد نظام الأغوات شهر سبتمبر سنة 1671م، "وخنقوا الأغا علي 18 أكتوبر"، في حين يذهب غليزي إلى أن الإنكشارية هي التي قتلت الأغا بعد عودتها من محلة جمع الضرائب من الشرق الجزائري.¹⁹⁵

5- مميزات عهد الأغوات 1659-1671م.

وتتميز نظام حكم الأغوات بالآتي:

- يحكم الأغا شهرين فقط؛ لكن في الحقيقة ولا أغا واحدا استمر حكمه الشهرين، حيث أن جلهم استأثروا بالحكم لأنفسهم.¹⁹⁶
- دام عهد الأغوات اثنا عشر سنة فقط، حيث امتد بين سنتي 1659-1671م، وبهذا فهو أقصر الأنظمة العثمانية في الجزائر.

¹⁹³ Jullian S. Corbett, England in The Mediterranean, 2Vol (Vol 2), 2nd Ed, London: Longmans, Greend and Co 1916, p101.

¹⁹⁴ Jullian S. Corbett, p359.

¹⁹⁵ Boyer, op.cit, p167.

¹⁹⁶ Degramont, op.cit, p209.

- رغم قصر فترة حكم الأغاوات إلا أن هذا لم يمنع من كونه أسوء نظام حكم شهدته الجزائر على طول فترة الوجود العثماني في الجزائر بين سنتي 1519-1830م، حيث توفي كل الأغاوات مقتولين، فأول حاكم للجزائر هو "بولكباشي خليل الذي حكم خلال الفترة بين سنتي 1659-1661م، حيث قتل بعد انقلاب الإنكشارية على الحكم، والسبب هو الهزائم التي توالى على الأسطول الجزائري ضد الدول الأوروبية".¹⁹⁷

- سيطر على الحكم الإنكشارية بعد أن عزلوا الرياس، وأصبح الأغا يتم انتخابه من قبل ديوان الإنكشارية.¹⁹⁸

- حاولت الإنكشارية وضع نظام يمنع الأغا من الاستئثار بالحكم لنفسه، من خلال الاستعانة بالديوان العالي الذي يضم أعضاء الفرق العسكرية البرية، ثم تم توسعته لاحقا حيث أصبح يضم ممثلين عن طائفة الرياس البحرية وبعض كبار الموظفين ومفتي الجزائر.¹⁹⁹

- ساءت العلاقات الجزائرية الإنجليزية كثيرا خلال عهد الأغوات، فأرسل الإنجليز حملة ضد الجزائر تحت قيادة توماس ألين، انتهت بتوقيع السلم مع الأغا في 30 أكتوبر سنة 1664م.²⁰⁰

¹⁹⁷ Degramont, op.cit, p211.

¹⁹⁸ Playfair, op.cit, p45.

¹⁹⁹ عمار بوحوش، مرجع سابق، ص59.

²⁰⁰ Articles of peace between His Most Sacred Majesty, Charles the Second, King of Great Britain, France and Ireland, &c. and the city and kingdom of Algiers, concluded by Thomas Allen Esquire, Admiral of His said Majesty of Great Britain's ships in the Mediterranean Seas, according to instructions received on that behalf from His Royal Highness the Duke of York and Albany, Earl of Ulster ... ; Being the same articles concluded by Sir John Lawson Knight, on the 23. of April, 1662. and afterwards more solemnly confirm'd on the 10. of November following, and since ratified by the Grand Signior, Edinburgh, : Re-printed in the year, 1664.

- انهيار النفوذ العثماني في الجزائر وتراجعها، نتيجة رفض الأتوات استقبال ممثل السلطان إلى الجزائر.

العاضة السادسة

عهد الدايات 1671-1830م.

- 1- الدايات الأوائل 1671-1711م.
- 2- قرن علم 1690-1770م.
- 3- مرحلة الانهيار والسقوط 1775-1830م.
- 4- مميزات عهد الدايات.

أدت الهزائم المتوالية التي لحقت بالأسطول الجزائري، والتي كان آخرها الهزيمة أمام الإنجليز سنة 1670م، إلى تأمر طائفة الرياس على علي أغا واغتيالها، "وفي المقابل سارع قادة الإنكشارية إلى انتخاب خليفة لعلي، غير أنّ كلّ محاولاتهم باءت بالفشل الذريع، ويقال أن الديوان عيّن خمسة أو ستة أغوات في ثلاثة أيام فقط، وقد امتنع كلّهم عن الجلوس على كرسي الآغوية خشية الموت اغتيالاً".²⁰¹

استغل الرياس تعطل انتخاب أغا جديد، وقرروا إلغاء نظام الآغوية، واستبداله بنظام جديد أكثر استقراراً وأطول عمراً، حيث ينتخب فيه الداوي مدى الحياة دون أن يورث الحكم لأبنائه كما وقع في تونس.

وكان عهد الداوي أوله حرب وجهاد بحري ومعاهدات وحملات أوربية، وأوسطه سلم واستقرار، وأما أواخره ففساد وسقوط دولة.

1- الدايات الأوائل 1671-1711م.

استقرت طائفة الرياس على انتخاب "الرايس محمد التريكي (1671-1682م) كأول داي على الجزائر، والحق أن الداوي الجديد كان ذا جاه ومحترماً من جميع رجال البحرية غير أنّ كبر سنّه جعل السلطة التنفيذية تؤول إلى صهره زوج ابنته المدعو بابا حسن"، الذي استطاع بحنكته وبراعته السياسية إعادة هيبه البحرية الجزائرية حيث نشطت في عهده الهجمات الجزائرية في البحر الأبيض المتوسط.

واجه حكم الداوي محمد التريكي عدّة صعوبات ستصبح ميزة نظام الدايات عامّة، "فقد أدّى تراجع سطوة الإنكشارية إلى تشكل عناصر جديدة من اليولداش، أشد سطوة وتمرداً حيث

²⁰¹ مبارك الملي، مرجع سابق، ص167.

لم تعد تطبيق صبرا على تأخر دفع جراياتهم، ولهذا راح التريكي يستدين من اليهود، وبذلك غدا اليهود مثل البنك بالنسبة للداي، وازداد نفوذهم حتى أصبحوا وسطاء سياسيين ثم مستشارين له".²⁰²

وفي المقابل حاول الداي الجديد إعادة بناء العلاقات الجزائرية الأوروبية من خلال عقد معاهدات مع الدول الكبرى، ولتحقيق هذه الغاية أعطى تلميحات إلى الهولنديين لتجديد معاهدة الصداقة، "خاصة وأن العلاقة بين الطرفين شهدت أسوأ ركود لها في الفترة الممتدة بين سنتي 1662-1674م".²⁰³

فبعث الجزائريون برسالة إلى الأمير الهولندي ويليام بواسطة التاجر اليهودي يعقوب دو باز وموزس رافييل سالوم الأممستردامي، يطلبون فيها إعادة بعث العلاقات الجزائرية الهولندية، وردت السلطات في لاهاي بإرسال توماس هيس إلى الجزائر، حيث توصل الطرفان إلى توقيع معاهدة سلام سنة 1679م.²⁰⁴

وفي سنة 1675م شنّ الأسبان حملة على تلمسان، غير أن الساكنة والأتراك قادوا هجوما مضادا ضدّهم ودفعوهم إلى التراجع نحو أسوارهم، واستغل الأتراك الطاعون الذي أودى بحوالي ثلاثة آلاف من أهل وهران فحاصروا المدينة مجددا.

كما أرسل بابا علي تدعيمات إلى الجيش الجزائري المرابض على حدود وهران والمرسى الكبير أين استمر الحصار مدّة ثلاث سنوات كاملة²⁰⁵، ويؤكد بعض المؤرخين أن الحصار

²⁰² عزيز سامح أتر، مرجع سابق، ص408.

²⁰³ قرياش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون....، مرجع سابق، ص66.

²⁰⁴ De Groot Alexander.H. Ottoman North Africa and the Dutch Republic in the seventeenth and eighteenth centuries, Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°39, 1985, p.139.

²⁰⁵ Degrammont, op.cit, p245.

رفع بسبب العمارة التي وصلت وهران من قرطاجنة نهاية جانفي سنة 1677م، غير أن الأتراك سرعان ما أعادوا الكرّة وحاصروا المدينة رفقة الساكنة المحلية في السنة الموالية²⁰⁶، وحاولوا اقتحامها لكن دون جدوى، وزاد الطاعون الطين بلة بعد أن قتل خلقا كبيرا من الجانبين.²⁰⁷ استغل الأسبان الوضع فقادوا حملة ارتدادية ضدّ الجزائريين تمكنوا من خلالها أسر ثمانمائة جزائري، الأمر الذي أجبر الجزائريين على الانسحاب خاصّة بعد وصول أنباء تقيّد بأن الإنجليز يفكرون في شنّ حملة بحرية على الجزائر العاصمة.

وفعلا فإنّ العلاقات الجزائرية الإنجليزية كانت تشهد تدهورا كبيرا حتى قبل سنتي 1678م، حيث استمرت الحرب بين الطرفين، فيحصى بلايفر "أنّ الجزائريين استطاعوا أسر خمسة أو ستة آلاف بريطاني، واستولوا على 350 سفينة في الفترة الممتدة بين سنتي 1674-1681م²⁰⁸، في حين تؤكد قائمة نشرها آرثر هاربرت في لندن سنة 1682م، أن "الجزائريين قد استولوا على مائة وثلاثة وخمسين سفينة بريطانية خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1677-1682م، وأحصى كاتب مجهول أن الإنجليز خسروا نصف مليون باوند بين سنتي 1679-1682م²⁰⁹، وفي المقابل استولى القبطان البريطاني توماس هارمين على سفينتين جزائريتين شهر أوت وسبتمبر سنة 1677م، كما استولى الانجليز في 28 أكتوبر من نفس السنة على

²⁰⁶ صالح عباد، مرجع سابق، ص 140.

²⁰⁷ Degrammont, op.cit, p246.

²⁰⁸ Playfair, Scorage..., op.cit, p47.

²⁰⁹ Adrian Tinniswood, p.irates of Barbary, Corsairs, Conquests, and Captivity in The Seventeen-century Mediterranean, New-York: The Penguin Group, 2010, p.151.

سفينة حرب جزائرية ذات الثمانية والثلاثين مدفعا بالقرب من جبل طارق، وتمكنوا أيضا من قتل مائة وستين جزائريا كانوا على متن سفينة جزائرية أخرى في المتوسط".²¹⁰

ويبدو أنّ الأرقام السابق ذكرها تثبت بما لا يدع مجالا للشك أنّ "الإنجليز كانوا في حاجة إلى السلم أكثر من الجزائريين أنفسهم، ولو أنّ الديوان سعى هو الآخر إلى تثبيت السلم مع الإنجليز؛ خاصّة وأنّ العلاقات الجزائرية الفرنسية كانت تعيش أسوء فتراتها.

وفعلا أرسل الملك البريطاني الأميرال آرثر هاربرت إلى الجزائر، أين استطاع إقناع الداى بابا حسن بتوقيع السلم يوم 10 أبريل سنة 1682م، وافق البريطانيون من خلاله على دفع الضريبة مقابل الحصول على الحماية لتجارتهم في البحر الأبيض المتوسط.²¹¹

كانت هذه المعاهدة ذا أهمية بالغة لكلا الجانبين، فالنسبة للبريطانيين فقد وفر الاتفاق قدرا من الأمن لسفنهم التجارية في البحر الأبيض المتوسط، وساعد على ترسيخ بريطانيا كلاعب مهم في التجارة الدولية، وأما الجزائريون فقد احتاجوا لهذه المعاهدة لعدم قدرتهم على مجابهة قوتين عظيمتين مثل فرنسا وبريطانيا في الآن نفسه؛ خاصّة وأنّ الحرب الجزائرية الفرنسية لم تضع أوزارها بعد وستستمر لسنين لاحقة.

1-1- الحملات الفرنسية على الجزائر 1682-1684م.

بعث الفرنسيون برسولين إلى الجزائر لأجل التفاوض مع الداى سنة 1679م، وفعلا اتفق الطرفان على إطلاق سراح أسرى الجانبين سنة 1681م، غير أنّ الفرنسيين نقضوا العهد

²¹⁰ William Laird Clowes, The royal Navy, A History From the Earliest Times to the Present, Vol.2, London: Sampson Low, Marston and Company, 1898, p.452.

²¹¹ Chitty, Joseph. A Treatise on the Laws of Commerce and Manufactures and the Contracts Relating Thereto: With an Appendix of Theaties, Statutes and Precedents. Vol. 4. Butterworth, 1824., p266-272.

ولم يطلقوا أي من الجزائريين، حيث أرسلوا الكثير منهم عبيدا على متن السفن الفرنسية المتواجدة في المشرق.

أعلن الجزائريون الحرب على فرنسا في 18 أكتوبر سنة 1681م، واستولوا على تسعة وعشرين سفينة فرنسية وثلاثمائة أسير، ورد الفرنسيون بإرسال حملة عسكرية على العاصمة الجزائرية، "وما إن بلغ مسامع الداوي التريكي عن الاستعدادات الفرنسية حتى همّ إلى اعتزال الحكم، والفرار نحو طرابلس الغرب، حيث أوكلت مهمة قيادة الجزائر إلى الداوي بابا حسن سنة 1682م".²¹²

وقد استغل الفرنسيون الوضع الذي كانت تمر به الجزائر، بسبب الطاعون الذي اجتاحتها، بالإضافة إلى انفجار مخزن البارود بقلعة باب الواد سنة 1681م، الأمر الذي أدى إلى هدم أربعمائة منزل.

فأرسلوا دوكين في حملة إلى الجزائر، حيث غادر ميناء طولون في 12 جويلية سنة 1682م، على رأس عمارة من ستة وثلاثين سفينة حربية، واستمر في قصف تحصينات المدينة في الفترة الممتدة بين الـ 30 أوت وإلى غاية الـ 04 سبتمبر، وقد كان القصف مدمرا جدا تحطمت من جزائه مئات المنازل، وتكدّست الجثث تحت الأنقاض في الشوارع وعلى الشاطئ، كما وقعت قنبلتان على المسجد الكبير والمسجد الجديد، وعمّ الرعب كل أرجاء العاصمة".²¹³

لم يحصل دوكين على أي ترصيات من السلطات الجزائرية، ولهذا قفل راجعا إلى فرنسا دون أن يحقق الأهداف المرجوة، ليعود مجددا في 18 جوان من السنة الموالية على رأس ستين سفينة حربية، واستمر القصف إلى غاية الـ 27 من نفس الشهر، حين أرسل الداوي بابا

²¹² مبارك الملي، مرجع سابق، ص178.

²¹³Charle Roux, op.cit, P181.

حسن مبعوثا جزائريا برفقة الأب لوفاشي إلى دوكين من أجل التفاوض، غير أن الأخير رفض أي حوار إلا بعد إطلاق سراح جميع الأسرى الفرنسيين".²¹⁴

وافق بابا حسن على الطلب الفرنسي، وأقدم على تسليم ما عدده خمسمائة وخمسين أسيرا دون استشارة الديوان أو رجال البحرية، في الوقت الذي لم يطلق دوكين أيا من الأسرى الجزائريين، حيث يذكر ابن رقية التلمساني "أنّ أهل الجزائر لم يرضوا بهذا الصلح، وأصبح الجميع يتمنى موت الداى فأقدم بعض الأتراك المغامرين على قتله".²¹⁵

عين ميزمورتو دايا جديدا خلفا لبابا حسن، وكان أول ما قام به هو مراسلة دوكين يطلب منه إطلاق سراح الأسرى الجزائريين، غير أن الأخير رفض الاقتراح وطالب الجزائريين بالإسراع في دفع الثلاثمائة ريال التي تعهد بها سلفه بابا حسن، غير أن ميزمورتو "أجاب بأنه إن لم يعطه أسارى المسلمين فلا صلح بينهما، فاغتاظ دوكين وقصف المدينة بثلاثمائة وخمسين قذيفة وصاروا يرمون المدينة بالقذائف ليلا نهارا دون توقف مدة ثلاثة وعشرين يوما كاملا، توفي خلالها أربعون جزائريا وانهدم ثلاثمائة منزل".²¹⁶

ولما تأكد الفرنسيون أن القصف لا يثني الجزائريين حتى التجأوا إلى الباب العالي يطلبون من السلطان التدخل، وفعلا وصل دوتورفيل رفقة ممثل السلطان سواحل مدينة الجزائر يوم الـ 02 أبريل سنة 1684م، وبعد مفاوضات استمرت عشرين يوما توصلت الأطراف المعنية إلى توقيع معاهدة سلام مدتها مائة عام كاملة.²¹⁷

²¹⁴Degrammont, op.cit, p250.

²¹⁵ابن رقية التلمساني، مصدر سابق، ص131.

²¹⁶ نفس المصدر والصفحة.

²¹⁷ مبارك الملي، مرجع سابق، ص190.

ومثل سابقها فإنّ هذه المعاهدة لم تستطع الصمود طويلا، فقد قاد الفرنسيون حملة على الجزائر شهر جوان سنة 1686م، "حيث ادعوا أن الحملة جاءت لوقف الهجمات القرصانية الجزائرية على التجارة الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط".

وصل الأسطول الفرنسي سواحل الجزائر العاصمة في الـ 26 جوان سنة 1686م، تحت قيادة الأميرال جين ديستري، رفقة أسطول يتكون من واحد وأربعين قطعة بحرية، "وشرع في قصف المدينة حتى ذهب البعض إلى القول بأن المدينة احتملت عشرة آلاف وأربعمائة وعشرين قذيفة، آذت بناياتها بشكل رهيب، غير أن الحملة سرعان ما أقلعت بعد أن رأت تمسك الجزائريين برأيهم ورفضهم التوقيع على أي سلام".

ولما علم الفرنسيون بأنّ استمرار الحرب مع الجزائر يعني أضرار مادية لتجارتهم، خاصة وأنّ الجزائريين كانوا قد وقعوا على معاهدين مع الإنجليز والهولنديين، الأمر الذي يعني أنهم أصبحوا متفرغين لمهاجمة السفن الفرنسية.

والحق أن التجارة الفرنسية قد تأثرت بشكل كبير نتيجة الهجمات الجزائرية على سفنها التجارية، ولهذا وصل ثمارسيل ممثل الملكي الفرنسي إلى الجزائر مع أوامر بالتوصل إلى اتفاق مع الجزائريين ينهي الخلاف القائم، وفعلا وقعت المعاهدة يوم 24 سبتمبر سنة 1689م.²¹⁸

²¹⁸ صالح عباد، مرجع سابق، ص144.

2- قرن سلم 1690-1770م.

كانت الحملة الفرنسية على الجزائر آخر الحملات الأوربية الكبرى على الجزائر طيلة الفترة الممتدة بين سنتي 1690-1770م، حيث عملت جميع الدول الأوربية على استئمان جانب دولة الجزائر من خلال السعي إلى توطين السلم مع داياتها.

استغل الأتراك الوضع الخارجي من أجل إعادة تشكيل وتوحيد الأقطار الجزائرية، وقبل التطرق إلى موضوع الوحدة وما سينجر عنه من صراع مع الاحتلال الإسباني المتواجد في وهران والمرسى الكبير، وجب علينا الإشارة إلى الحملة الجزائرية على المغرب سنة 1688م، والحقيقة أن الحملة السابقة لم يرد ذكرها في أي من المصادر العربية المعاصرة للفترة، وإنما جاء ذكرها على لسان الأسير بروك في مذكراته الشخصية، فيذكر عن سبب الحملة قوله: "لقد بعث سلطان المغرب برسالة إلى الجزائريين يقترح فيها عليهم عقد صفقة تخصّ شراء الأسرى من أجل إنهاء مشاريعه العالقة، ولهذا فإذا أراد الجزائريون بيع أي منهم، فإنه مستعد لشراء الأسير الواحد مقابل مائة وخمسين دولارا... فأرسل الجزائريون ثلاثمائة أسير فرنسي إلى تطوان، غير أن الملك المغربي رفض دفع المبالغ التي وعد بها وطرده الوفد الجزائري المرافق للأسرى".²¹⁹

وما إن بلغ الخبر مسامع الجزائريين حتى "جهّزوا حملة قوامها خمسون ألفا من الجنود، وغزوا المغرب حتى بلغوا حصون مدينة تازة، وفي الجهة المقابلة أرسل مولاي إسماعيل ابنه للقاء الجزائريين، غير أن الأخير مني بهزيمة ساحقة، وارتد الكثير من جنده عن الجيش

²¹⁹ Francis Brooks, Barbarian Cruelty, Being A True History of the Distressed Condition of the Christian Captives under the Tyranny of Mully Ishmael Emperor of Morocco, and King of Fez and Macqueness in Barbary, In which is likewise given a particular Account of his late Wars with the Algerines..., London: Printed for J. Salusbury at the Rising-Sun in Cornhil, and H. Markman at the King's Arms in the Poultry, 1693, p7

المغربي وانضموا إلى الجزائريين، وما إن وصلت أنباء الهزيمة إلى والده، حتى أقبل على الأسرى المسيحيين ونادى فيهم يحثهم على الالتحاق بجيشه مقابل الحرية، لكن الرياح لم تسر بالشكل الذي يبتغيه الملك، حيث "تلقى الجيش المغربي هزيمة أخرى جعلت مولاي إسماعيل يقبل بالشروط الجزائرية، حيث منحهم ثمانية وأربعين بغلا محملة بالذهب وأحصنة وأثاثا تبلغ قيمته مائتي ألف كراون".²²⁰

ويبدو أن الملك المغربي مولاي إسماعيل قد ساءه فعلة الجزائريين، ولهذا قرر الرد عليهم من خلال استغلال الهجوم التونسي على قسنطينة، "فجعل ابنه مولاي زيدان على رأس جيش وأعطى له الأوامر بغزو تلمسان التي احتلها شهر سبتمبر سنة 1700م، فهادنه الجزائريون من أجل التفرغ لتونس"²²¹، غير أن مولاي إسماعيل لم يشبع نهمه سقوط مدينة واحدة في يده، فكبرت أطماعه وقرر عزل ابنه وقيادة حملة على الجزائر بنفسه شخصيا فخرج على رأس جيش تكون من اثنا عشر ألف جندي وذهب آخرون إلى التأكيد بأن مولاي إسماعيل ترأس خمسين ألف جندي، في حين لقيه الداوي مصطفى على رأس جيش لم يتجاوز عدده السبعة آلاف جندي، لكن ورغم ميلان ميزان القوى لصالح المغاربة إلا أن الجزائريين وعلى قلة عددهم استطاعوا إبادة الجيش المغربي في أربع ساعات فقط، حتى أن الملك المغربي نالته جروح كثيرة كادت تؤدي بحياته كما وقع فرسه أسيرا لدى الجزائريين حيث عرض على الملك

²²⁰ Francis Brooks, op.cit., p8

²²¹ Cour Auguste, L'établissement des dynasties des chérifs au Maroc: et leur rivalité avec les turcs de la régence d'Alger, 1509-1830, Ernest Leroux, 1904, p15.

الفرنسي²²²، وقد رجع الأتراك قافلين إلى العاصمة وهم يحملون ثلاثة آلاف رأس من رؤوس الجند المغاربة.²²³

ولم يكد يفرح الجزائريون بانتصارهم حتى ضرب الطاعون البلد مجددا سنة 1701م، وأودى بحياة خمسة وأربعين ألفا من الساكنة المحلية حسب تقرير كتبه القنصل الفرنسي.²²⁴ أصبح الجزائريون يفكرون جديا في إعادة فتح وهران، خاصة وأن الأمور قد استقرت لهم فيما يتعلق بالعلاقات مع أوروبا وكذا العلاقات مع الجيران، حيث وقعوا السلم "مع الفرنسيين سنة 1686م، وجددت المعاهدة الجزائرية الإنجليزية سنة 1701م"²²⁵، كما وضعت الحرب الجزائرية التونسية أوزارها سنة 1702م.²²⁶

قاد حاكم وهران حملة عسكرية على قبائل بني عامر المتحالفة مع الأتراك سنة 1703م، وقتل ثمانين شخصا وأسر مائتين وخمسين آخرين، غير أنه للسلم الذي وقعه حاكم وهران مع الداوي مصطفى سنة 1701م، وهكذا بدأت العلاقات بين الجانب الإسباني والجزائري في التصدع إلى أن قرر الداوي محمد بكداش (1707-1708م) تحرير وهران، فأرسل صهره حسن أوزن رفقة باي الغرب مصطفى بوشلاغم فاتحا على وهران سنة 1708م.²²⁷

²²²GALIBERTLéon, L'Algerie, ancienne et moderne depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours: comprenant le bombardement de Tanger, la prise de Mogador, la bataille d'Isly, et le glorieux combat de Djemma-Gazouat. Furne, 1846, p235.

²²³صالح عباد، مرجع سابق، ص149.

²²⁴GALIBERTLéon, op.cit, p235.

²²⁵Additional Article between Great Britain and Algiers, signed at Algiers, 10 August 1701.

²²⁶GALIBERTLéon, op.cit, p235.

²²⁷بين ميمون الجزائري محمد، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح. محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر، وزارة الثقافة الجزائرية، 2007.

استطاع الجيش الجزائري تفجير أكبر حصن في المدينة، واقتحام أسوارها يوم 16 أبريل سنة 1708م، وبعد معارك ضارية تمكنوا من إجبار الحامية الاسبانية على الاستسلام، وساقوا 1461 أسيرا نحو العاصمة الجزائرية.²²⁸

ومع أن الداوي محمد بكداش كان سببا في فتح وهران، إلا أن الانكشارية ثارت ضده واغتالته بسبب تأخر دفع جراياتها سنة 1709م وعيّنت مكانه الباشا إبراهيم دايا جديدا والحق أن الكثير من الدايات سيكون مصيرهم الاغتيال، حيث سيصبح فكر الاغتيال والثورة هو الغالب في صفوف الانكشارية حين لا يعجبهم الداوي أو يتأخر دفع جراياتهم.

لم يتمتع إبراهيم طويلا بنشوة الحكم حيث قتله أحد الجنود في 14 أوت من نفس السنة وخلفه علي شاوش، "الذي اشتهر بالحزم والنزاهة وقوة الشخصية، ولهذا سارع إلى رفض نزول الباشا ممثل السلطان العثماني على أرض الجزائر، فانسحب الأخير وقذفت به العاصفة إلى شواطئ القلّ أين توفي هناك سنة 1711م".²²⁹

ومثل سلفه فقد حاول الجند اغتياله في مرات مختلفة، حيث استغل "أحد القادة الزلزال العنيف الذي هزّ مدينة الجزائر سنة 1712م وألحق دمارا كبيرا بالمنازل، وراح يسعى لإقناع الجند بأن الزلزال لن يتوقف إلا بوفاة الداوي"، لكن علي شاوش توفي في النهاية بسبب المرض، حيث "تشير بعض المصادر إلى أن بسبب وفاته يرجع إلى الحمى في حين رأى ابن المفتي أن الوفاة مردّها إلى الاسهال".²³⁰

²²⁸المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، قسنطينة، ص464.

²²⁹مبارك الميلي، مرجع سابق، ص210.

²³⁰ابن المفتي مصدر سابق، ص61.

ولم يمض على زلزال سنة 1712م إلا بضع سنوات حتى ضرب الجزائر زلزال جديد في عهد الداوي محمد أفندي سنة 1716م، وقد كان مدمرا بشكل مخيف، خاصة مع قدم البنية التحتية لمنازل القصبة والعاصمة التي تأثرت نتيجة التقلبات السياسية وانفجار مخازن البارود. وتشير بعض التسجيلات إلى أن الزلزال قد استمر خلال الفترة الممتدة بين شهري فيفري إلى ماي سنة 1716م، وهدم مائتين وأربعة منازل بالإضافة إلى أربعة مساجد، وبلغ صدى تدميره الثلاثة كيلومترات كاملة²³¹، ولم تتوقف الزلازل عن ضرب مدينة الجزائر على طول القرن الثامن عشر حيث تعرضت المدينة لهزّات متتالية سنوات 1727م و1778م و1779م. استغل الإسبان الوضع العام في الجزائر العاصمة سنة 1727م، وما أحدثه من دمار في المدينة وقادوا حملة على وهران سنة 1732م وتمكنوا من فتحها، وقيل "أن الداوي كرد عبدي قد حزن حزنا شديدا نتيجة سقوط وهران في يد الإسبان، وامتنع عن الأكل والشرب إلى أن توفي في 03 جويلية سنة 1732م.²³²

2-1- توتر العلاقات الجزائرية التونسية:

إنّ دايات الجزائر وبمجرد استقلالهم عن الباب العالي، حتى بدؤوا يفكرون بشكل جدي في استعادة مجدهم الذي بلغ الآفاق خلال عهد البايلربات حين كانت تتبع تونس وطرابلس الغرب إلى دولة الجزائر الكبرى.

²³¹ ينظر: Amina Abdessemed-Foufa; Djillali Benouar, "Investigation of the 1716 Algiers (Algeria) earthquake from historical sources", International Journal of Architectural Heritage. Vol.04, 2008.

²³² ابن المفتي، مصدر سابق، ص62.

لقد شهدت العلاقات الجزائرية التونسية توترا طيلة القرن الثامن عشر، فقد تمكّن الجزائريون من أخذ الباي إبراهيم الشريف أسيرا إلى الجزائر سنة 1705م، فأسرع التونسيون إلى تعيين حسين بن علي بايا جديدا خشية هجوم جزائري مفاجئ على الأقطار التونسية.²³³

ولم يهنأ التونسيون كثيرا بهذا التصيب فقد ثار ابن أخ الباي علي، مستعينا بأتراك الجزائر فاستولى على العرش ثم قتل عمّه سنة 1740م²³⁴، وبمجرد اعتلائه السلطة أعلن استقلاله عن الجزائر، وفي المقابل لجأ أبناء عمه إلى الجزائر أملا في الحصول على الدعم ضد ابن عمّهم.

وفعلا فقد استغل الجزائريون لجوء أبناء علي بن الحسين إليهم، بالإضافة إلى سوء إدارة الباي علي وجوره، خاصة بعد أن "ثارت في عهده الانكشارية مرتين في سنوات 1743م و1752م، كما ساءت طريقة حكمه حتى مؤيديه الذين انتظروا الفرصة للانقلاب عليه، وفي المقابل زادت شعبية ابنا عمّه محمد وعلي الفارين إلى الجزائر، واللذان رافقا الحملة الجزائرية على تونس، ودخلاها رفقة الجيش الجزائري في 30 سبتمبر سنة 1756م".²³⁵

وهكذا آلت السلطة إلى أبناء الحسين محمد وعلي ومحمود، ثم من بعدهم إلى حمودة ابن علي ابن الحسين، الذي كان مولده في الجزائر من أمّ علجية، وقد اعتلى سدّة الحكم بتاريخ

²³³ياسين صنديد، الأسرة الحسينية ودورها في العلاقات السياسية الاقتصادية بين تونس وفرنسا، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة غرداية، 2012م، ص 21 .

²³⁴فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي...، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م، ص 30.

²³⁵صنديد ياسين، مرجع سابق، ص 23.

الـ 31 ماي سنة 1782م³. وقد شهدت فترة حكمه اشتعال نار الحرب بين الجزائر وتونس مرتين، كانت الأولى سنة 1806م، وأما الثانية فنشبت سنة 1806م.²³⁶

2-2- الجزائر ودول شمال أوربا (الدنمارك والسويد) 1747-1775م:

جاء في إحدى التقارير الفرنسية أواسط القرن السابع عشر "أن التجارة البحرية السويدية تحتلّ المرتبة الخامسة في أوربا، خلف كلّ من بريطانيا، فرنسا، الأراضي المنخفضة، والدنمارك، ومتقدّمة بذلك عن كلّ من الإسبان والصقليتين (مملكة نابولي وصقلية)".²³⁷

وقد أدى ارتفاع أسعار الملح في كلّ من ستيل ولشبونة إلى دخول كل من الدنمارك والسويد إلى البحر المتوسط، الذي يميّز بالعنف ودوام الحروب البحرية ما جعل التجارة البحرية لهاتين الدولتين عرضة لهجمات البحرية الجزائرية.²³⁸

إن هذا المشكل الطارئ الذي اعترض البحريتين جعل رجال الدولتين في حيرة من أمرهم، خاصة وأنّ كلا الدولتين لا تمتلكان القوة البحرية اللازمة لمواجهة التحديات العسكرية الجديدة، ولهذا سارع قادتهما إلى إيجاد حلّ سلمي يرضي جميع الأطراف، "فأسس السويديون مكتبا سموه "إكسترا ليشنتن من أجل جمع أموال الفدية وتحرير الممتلكات السويدية التي استولى عليها رجال البحر الجزائريون والمغاربة سنة 1723م، حيث فرضت الضرائب على الصادرات

²³⁶ عبد الكريم غلاب، مرجع سابق، ص35.

²³⁷ Leos Muller, "Swedish Shipping in Southern Europe and Peace Treaties with North African States: An Economic Security Perspective", Historical Social Research Vol35, N°4, 2010, p.191-192.

²³⁸ Joachim Ostlund, Swedes in Barbary Captivity: The Political Culture of Human Security, Historical Social Research, Vol35, N°4, 2010, p149.

والواردات السويدية، وخصصت عائداتها لتحرير الأسرى والممتلكات الخاصة والعامّة السويدية.²³⁹

لم يتوقف طموح السلطة السويدية عند هذا الحد ولم تجنح إلى الاعتماد المفرط على مكتب إكسترا ليشنتن بل تأثرت بالسلم الذي وقعه الهولنديون مع داي الجزائر سنة 1726م، "وأرسلوا لهذا الغرض اليهودي والتاجر جورج لوجيي من أجل التمهيد لعملية التفاوض، في حين وصل سنة 1729م جون فو إتغال إلى الجزائر، وتمكن من توقيع معاهدة مع الجزائريين شهر أبريل من نفس السنة، وكحسن نيّة بعث السويديون بسفينتين إلى الجزائر تحمل على متنها أربعين مدفعا، وثمانمائة سيف وألفا وستمائة قذيفة مدفع والصواري والمراسي، ما مجموعه واحد وعشرون ألفا ريكس-دولار، وردّ الدايا بإرسال أسدين وأزواج من الحيوانات المتوحشة الأخرى، كما قام بأطلاق سراح الأسرى السويديين.²⁴⁰

وعلى عكس أشقائهم السويديين فقد تأخر الدنماركيون في التوصل إلى اتفاق ينهي العداوة مع الدول المغاربية، "ولم يحدث توافق في الرؤى بين الضفتين إلا في الفترة الممتدة بين سنتي 1747-1753م، حين عقدت الدنمارك بعض المعاهدات مع سلطات المنطقة، وهكذا استطاع الدنماركيون تجنّب وقوع مواطنهم أسارى، حيث تشير الإحصاءات أن عشرين ألف رحلة بحرية دنماركية جرت وراء رأس فينستر بين سنتي 1747-1807م، أين توجّه منها أكثر من خمسة عشر ألف رحلة إلى البحر المتوسط".²⁴¹

²³⁹ Magnus Ressel, The North European way of Ransoming: Explorations into an Unknown Dimension of The Early Modern Welfare State, Historical Social Research, Vol35, N°4, 2010, p127.

²⁴⁰ Leos Muller, op.cit, p194.

²⁴¹ Dan H. Andersen, Hans-Joachim Voth, The Grapes of War: Neutrality and Mediterranean Shipping Under The Danish Flag, 1750-1807, Discussion Papers in Economic and Social History, N° 18, Sept. 1997 p04.

وقد اغتبط الدنماركيون اغتباطا شديدا بهذه المعاهدة، فأرسلوا إلى الجزائر على جناح السرعة أربعين مدفعا عاديا وأربع مدافع هاون وعشرين ألف كرة مدفع وستة آلاف قنبلة ومعدّات البناء.²⁴²

غير أن المعاهدة السابقة لم تعد الاستقرار إلى العلاقة بين الجانبين، فقد كانت السفن الدنماركية هي المفضّلة دائما لدى الجزائريين كونها سفنا تجارية غير مسلّحة، على عكس السفن الفرنسية والبريطانية والهولندية.

وانطلاقا مما سبق فقد رأت الحكومة الدنماركية ضرورة قيادة حملة على الجزائر ترغمها على توقيع السلم وتثبيتته، وفعلا وصل أسطول دنماركي أمام السواحل الجزائرية في جويلية سنة 1770م، تكوّن من أربعة سفن عالية ذات السبعين مدفعا وفرقاطتين ذات الأربعين مدفعا، تحت قيادة الأميرال الكونت دوكاسي حيث استمر القصف ثلاثة عشر يوما دون انقطاع²⁴³، لكن دون تحقيق أي نتائج مرجوة، وهذا ما اعطى الشرعية الكاملة لإعلان الجزائريين الحرب على الدنمارك واستباحة سفنها.

3- مرحلة الانهيار والسقوط 1775-1830م.

شهدت الفترة الأخيرة من عهد الدايات انهيارا فعليا للجزائر، وذلك بعد انتشار الفساد في كل أجهزة الدولة، خاصة بعد تراجع عائدات الغنائم البحرية، ما جعل الأتراك يحاولون تعويض الخسائر برفع الضرائب والجباية، الأمر الذي أنتج ثورات كادت تعصف بالنظام العثماني في الجزائر.

²⁴² De Gramont H. D, Histoire ..., op.cit., p.253

²⁴³ أحمد الشريف الزهار، الجزائر مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، تح. أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت، 1974م، ص25.

ولم تنتهي مشاكل السلطة التركية عند هذا الحد بل واجه الدايات حملات بحرية أوربية شديدة البؤس، وبلغ بعضها من الشدة أنها ألحقت أضرارا بالغة على العاصمة حتى جعلت من الصعب إعادة ترميمها.

أرسل الاسبان حملة على الجزائر تكوّنت من خمسمائة سفينة وحوالي عشرين ألف جندي سنة 1775م، وأوكلت مهمة قيادة الجيش إلى الأيرلندي الأميرال أورلاي، غير أن هذه الحملة قد فشلت فشلا ذريعا، وخلفت ورائها ألفي قتيل إسباني، حتى أصبح أورلاي يكتئب "بصاحب الحظ السيء".²⁴⁴

أعاد الاسبان الكرة في سنة 1783م، حيث بعث الامبراطور الاسباني بالقائد أنطونيو دي بارثيلو أملا في إخضاع الجزائر، وفعلا وصل الأسطول قبالة السواحل الجزائرية يوم 29 جويلية من نفس السنة أين باشر القصف الذي استمر إلى غاية الـ 09 أوت²⁴⁵، غير أن الحملة مثل سابقتها لم تحقق الأهداف المرجوة منها، لينسحب الأسطول في النهاية قافلا إلى إسبانيا.

ولأن الإسبان لم يستسيغوا الهزيمتين السابقتين فاتّهم أصروا على إعادة الكرة مجددا على الجزائر سنة 1784م، وقد بلغ أنطونيو دي بارثيلو سواحل الجزائر يوم الـ 10 جويلية من نفس السنة، على رأس جيش تكوّن من أكثر من مائة وسبعين سفينة ، حيث تولى "البابا بيوس السادس تحمّل جميع تكاليف الحملة".²⁴⁶

²⁴⁴Samuel Fannin, "Alexander "Bloody" O'reilly a Monster of Fortune", History Ireland, Autumn 2001, p.29.

²⁴⁵Gentleman's Magazine and Historical Review, T.53, F. Jefferies, 1783, P705.

²⁴⁶Pinkerton, John, A general collection of the best and most interesting voyages and travels in all parts of the world: many of which are now first translated into English ; digested on a new plan. London: Longman, p177.

لكن الحملة واجهت صعوبات منذ بدايتها فقد أصابت شضية مدفع سفينة القائد بارثيلو وأدت إلى غرقها، ورغم تجاسره على نفسه محاولا التقليل من أهمية الحادث، إلا أن الرياح المعاكسة قد أجبرت الأسطول الاسباني على الانسحاب والعودة إلى قرطاجنة يوم الـ 21 جويلية سنة 1784م، حيث أطلقت المدافع الاسبانية عشرين ألف قنبلة على العاصمة²⁴⁷، دون أن تتمكن من إجبار الجزائريين على النزول عند الطلبات الإسبانية.

كان لفشل الحملات السابقة أثره البالغ في تشجّع الجزائريين لاستعادة وهران من يد الإسبان، مستغلّين "الدمار الذي ألحقه الزلزال بالمدينة يومي 08 و 09 أكتوبر سنة 1790م"²⁴⁸، وفعلا أعطيت الأوامر للباي محمد بن عثمان الكبير لحصار وهران، والذي خرج على رأس "مائة فسطاط"²⁴⁹ كما يصف ذلك الزياني، في حين يذهب جورجوس إلى "أنّ الباي عثمان قد جمع حوله خمسين ألفا من الجند".²⁵⁰

فحاصر وضيق على وهران من كلّ جانب، حتى أن الاسبان لما ضاقت عليهم الأحوال ولم يجدوا مخرجا، وانهارت همّة الوقوف في وجه الباي عثمان، سارعوا إلى إرسال مبعوث إلى إسبانيا يطلب الإسراع في التفاوض مع الجزائريين، وفعلا اتفق الطرفان على هدنة لمدة شهر اعتبارا من 20 مارس سنة 1791م، غير أنّ الاسبان لم يهنؤوا طويلا بهذا الاتفاق حيث

²⁴⁷ Alan G. Jamieson, *Lords of the Sea A History of the Barbary Corsairs*. Reaktion Books, 2003, p. 176.

²⁴⁸ بليارات بن عتو، التحرير الثاني والنهائي لوهران والمرسى الكبير عام 1792م، مجلة عصور، ع.04 و05، جامعة وهران، 2003م، ص265.

²⁴⁹ محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح. المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، ص217.

²⁵⁰ Gorguos, A, « Notice sur le Bey d'Oran, Mohammed el Kebir. Revue africaine| Bulletin de la Société historique algérienne, R.A, N.05, 1857.

اندلعت الحرب مجددا في ماي من نفس السنة، بعد وصول تعزيزات إلى الباي محمد من الجزائر العاصمة تحته على مواصلة الحرب.²⁵¹

وأمام تزايد الهجمات الجزائرية على أسوار وهران وإنهاك الحامية الإسبانية، وافق الإسبان على الانسحاب من المدينة، ووقعت معاهدة بين الطرفين في الجزائر العاصمة يوم الـ 12 سبتمبر سنة 1791م، ثم أرسلت إلى مدريد أين أعطى الملك شارل الرابع موفقته عليها يوم الـ 12 ديسمبر سنة 1791م، في حين خرجت آخر سرية من الحامية الإسبانية المتواجدة في وهران شهر فيفري سنة 1792م.²⁵²

لم يكن فتح وهران سوى الشجرة التي تغطي الغابة، ذلك أن الوضع الداخلي كان كارثيا بشكل لا يصدق، خاصة مع انتشار الظلم والتجبر وسط الأوغارشية الحاكمة، حيث انحدرت السلطة إلى أرذل المنازل، ولم يعد حتى الحكام والبايات آمنين في أبدانهم ولا أموالهم؛ فما بال الرعية المغلوبة على أمرها، "ففي أواخر جوان قتل أحد الجنود التاجر اليهودي بوشناق بعد أن ناداه "ملك الجزائر"، فعمت الفوضى في المدينة وقتل الكثير من اليهود، ولما خشي الداوي مصطفى على رأسه رخص للجند بنهب المدينة أملا في السماح له باللجوء إلى المشرق غير أن الجند قاموا عليه وقتلوه"²⁵³، وأما باي الغرب بوكابوس الذي أسرف في "سفك الدماء والقتل فإن نهايته كانت سيئة جدا بعد أن رفض المشاركة في الحرب الجزائرية التونسية، حيث أرسل

²⁵¹Ismet Terki Hassaine, « Oran au xviiiè siècle : du désarroi à la clairvoyance politique de l'Espagne », Insaniyat, N.23-24,2004, p53.

²⁵²Ibid, 50-51.

²⁵³مبارك الميلي، مرجع سابق، ص253.

الداي في طلبه الآغا عمر الذي سلخ رأسه وهو حيّ وملاً بطنه تبنا بعد أن بقره وعلق جسده على أحد الأعمدة زمنا ثم قتل أولاده".²⁵⁴

وقد استمرت مهازل الأتراك ولم تتوقف عند حد معين، "فقد عين الانكشارية الدايا الإسكافي وصانع الأحذية أحمد باشا، غير أنهم سرعان ما انقلبوا عليه وقاموا بقتله في شوارع المدينة، ثم اتفقوا على أن يدخلوا قصر الجنينة وينصبوا أول من يصادفهم داخل أسوار القصر دايا على الجزائر، وكان أول من صادف الجند هو علي غسال الموتى، الذي اعتلى العرش غير أنه لم يمضي على تنصيبه سوى أربعة أشهر حتى عادوا واغتالوه مثل سابقه".

والحق أن تصرفات الإنكشارية وجور الدايات والبايات والأقلية التركية، لم تستسغه الجموع الشعبية، حيث عمّت الثورة جميع ربوع الوطن خلال الفترة المتأخرة من الحكم العثماني تنديدا بالأوضاع السائدة، فاندلعت ثورة ابن الأحرش سنة 1803م وعمت كامل تراب الشرق الجزائري، وقتل نتيجتها الباي عثمان ولم تنتهي إلا بعد التحاق ابن الأحرش بثورة الدرقاوي التي سادت الغرب الجزائري.

كما أعلن التيجاني الثورة ضد حسن موسى باي بايلك الغرب سنة 1826م بسبب جوره وكثرة قتله للعلماء والرعية، وقيل عن ظلمه "أن الباي قد أطلق يد قواده وعمّاله للتصرف بكلّ حرية في الرعية، حتى أن الباي كان إذا توفي أحد المواطنين صير نفسه وريثا له"²⁵⁵، وقد استمرت الحرب سجالا بين الجانبين وذلك إلى غاية سنة 1827م، عندما استطاع الباي قتل التيجاني وجميع أتباعه ولم يذر منهم أحدا على قيد الحياة.

²⁵⁴ المزاري بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا....، تح. يحيى بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي، ص337.

²⁵⁵ ينظر: المزاري، الزباني.

ولم يكن الوضع الخارجي أهون ولا أقل مأساة من الوضع الداخلي، حيث يمكن أن نلاحظ في الجدول "التالي كيف تراجعت عائدات الغنائم بشكل مخيف خلال أواخر عهد الدايات"²⁵⁶:

نسبة العائدات البحرية في الاقتصاد الجزائري 1798-1815م

السنوات	إجمالي المداخيل	العائدات البحرية	نسبة المداخيل البحرية
1799-1798	3.370.000 فرنك	870.000 فرنك	25.8%
1800-1802	2.770.000 فرنك	270.000 فرنك	9.7%
1804-1810	2.625.000 فرنك	125.000 فرنك	4.8%
1811-1815	3.125.00 فرنك	625.000 فرنك	20%

إن الجدول أعلاه يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن البحرية الجزائرية قد تأثرت تأثراً بالغاً نتيجة تراجع عائدات الغنائم البحرية مع العلم أنه العائدات البحرية طالما مثلت الجزء الأكبر من موارد الاقتصاد الجزائري.

²⁵⁶Daniel Panzac, Barbary Corsairs, The End of a Legend 1800-1820, Tr. Victoria Hobson, LEIDEN: Brill, 2005, p.131.

وهكذا فإنّ الوضع العام قد أثر بشكل مباشر على سيرورة العلاقات الجزائرية الأوربية، حيث تشجعت العديد من الدول الغربية في إعلان الحرب على الجزائر، "ففي سنة 1815م قاد الأسطول الأمريكي تحت قيادة ستيفن ديكاتور حملة على الجزائر، حيث التقى في طريقه بالأسطول الجزائري الذي كان يقوده الرئيس حميدو، فتمكن الأمريكيان بعد معارك ضارية مع الجزائريين من قتل الرئيس حميدو يوم 17 جوان سنة 1815م، وأسر عدد كبير من البحارة الآخرين".²⁵⁷

وصل الأسطول الأمريكي السواحل الجزائرية يوم 29 جوان، ورفع العلم الأبيض كإعلان عن الرغبة في التفاوض، وفعلا تم توقيع معاهدة سلام بين الطرفين، حيث قدّم الجزائريون تعويضات للأمريكان قدرها عشرة آلاف دولار، وفي المقابل أعاد ديكاتور السفن الجزائرية التي أسرها رفقة جميع طواقمها.

والحق أن الحملة الأمريكية ورغم الأذى الذي ألحقته بالجزائر إلا أنها لا تعادل الأضرار التي سيأتي ذكرها عن الحملة البريطانية سنة 1816م، تحت قيادة الأدميرال اللورد إكسموث، "فبعد انعقاد مؤتمر فيينا أواخر سنة 1814م وأوائل سنة 1815م اتفقت الأطراف الأوربية المجتمعة على إيقاف ما أسموه بالقرصنة المغاربية"، ولهذا الغرض أرسل اللورد إكسموث على رأس أسطول بريطاني نحو السواحل الجزائرية.

²⁵⁷ Fatima Maameri, Ottoman Algeria in Western Diplomatic History with Particular Emphasis on Relations with the United States of America, 1776-1816, the Faculty of Letters and Languages: A Thesis for the Degree of Doctorat d'Etat, 2008, p.311.

كان القصف مدمرًا ومرعبًا حيث استمرّ عشر ساعات ممتالية حتى قيل أن الإنجليز أطلقوا على الجزائر أربعين ألف مدفع²⁵⁸، مخلفا خمسمائة قتيل وجريح²⁵⁹، في الوقت الذي يؤكد اللورد إسكموث "أن عدد القتلى والجرحى قد تراوح بين الستة آلاف أو السبعة آلاف قتيل، وقدرت الخسائر الجزائرية بحوالي مليون جنيه إسترليني".²⁶⁰

لم تقم للجزائر بعد هذه الحملة قائمة، ولا استطاعت أن تعيد تجديد أسطولها ولا حتى تحصيناتها أو واجهتها البحرية، ولعل ما يجعل المطع في الموضوع يستاء هو ذلك الفساد والصراع على السلطة الذي لم يتوقف نتيجة كل هذه الحملات، حيث لم يقف أي داي على إعادة إصلاح الوضع وتدارك الخلل، ففي الوقت الذي كان الأسطول الجزائري يتكون من الشباك والغليارة والغراب والغليوطة؛ فإنّ هذا النوع من السفن كان يستخدم في أوربا لصيد الأسماك، وتثبت الحملة التي قادها الإنجليز ببارجتين من نوع السفن العالية سنة 1824م مدى الضعف الذي بلغته الجزائر، حيث استطاع الانجليز بهاتين السفينتين فقط فرض حصار على الجزائر العاصمة دام ستة أشهر كاملة".²⁶¹

إن كل هذه الأحداث واجتماعها أدت إلى انهيار الجزائر في النهاية، حيث سقطت بيد الفرنسيين سنة 1830م.

²⁵⁸ مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر، تح. رايح بونار، ش. و. ن.ت، الجزائر، 1974، ص108-109.

²⁵⁹ Abraham Salamé, Narrative of the Expedition to Algiers in the Year 1810, Under the Command of the Right Box Admiral Lord Viscount Exmouth, London: John Murhay, Albemarle-Street, 1819, p.2.

²⁶⁰ Playfair, E. L, Scorage..., op.cit, p.269, 177.

²⁶¹ Dreadnought H.M.S., The Royal Navy, London: Adam And Charles Black, 1907, p236-37.

4- مميزات عهد الدايات:

- أدى الضعف الذي مس البحرية الجزائرية إلى نمو "طائفة اليولداش بقوة على حساب الإنكشارية التي انهارت خاصة وأن الأناضول لم يعد يرسل بحارة أشداء بل أصبح الوافدون في أغلبهم من القتلة والمجرمين.²⁶²
- كان الداوي يحكم مدى الحياة رغم أنه من النادر أن يصادف الباحث دايا أنهى مسيرته في الحكم دون أن يُقتل أو يعزل.
- استمر حكم الدايات مائة وتسعة وأربعين سنة حيث امتد بين سنتي 1671-1830م، وبهذا فهو أطول عهود التواجد العثماني في الجزائر.
- كان أول داوي حكم الجزائر سنة 1671م هو الحاج محمد باشا، ورغم قوة الداوي الجديد وعدم استثنائه بالحكم لنفسه؛ إلا أن الحاكم الفعلي للجزائر كان صهره بابا حسن.²⁶³
- إنّ للداوي القوة الكاملة نظريا في إدارة البلاد رغم أن الديوان هو الذي كان ينتخب الداوي نفسه، كما أنّ الديوان يعتبر المستشار الأول للحاكم، وهذا لكيلا يشعر الداوي بالقوة المطلقة حين إدارة مقاليد الحكم؛ لكن الواقع يثبت أن الداوي كان يرجع في استشارته دوما لوزرائه مثل: الخزانجي وآغا المحلة ووكيل الخرج... إلخ، وقد شكل هؤلاء الوزراء ديوانا منافسا للديوان الأكبر.²⁶⁴

²⁶²عزيز سامح أتر، مرجع سابق، ص406.

²⁶³قرباش بلقاسم، مرجع سابق، ص66.

²⁶⁴ Mahfoud Kaddache, L'Algérie durant la période ottomane, Office des publications universitaires, Alger, 1998, p239.

- انتشار الظلم والتعسف ضد أهل البلاد؛ خاصة من قبل البايات، مثل: باي بايلك الغرب بوكابوس محمد بن عثمان الذي قتل السائح بن خضرة رئيس قبيلة سويد بالمسدس، وأحدث البشائع في الثوار الدرقاوة، حتى أن الرجل كان إذا ادعى محبة الدرقاوي قام فيه وقطع رأسه في الحين، كما كان يقطع رأس كل من يعارضه،²⁶⁵ ويذكر الزياني عن ظلم الأتراك أن الدرقاوي لما ذهب لقائد الطريقة الدرقاوية في المغرب، قال له: "إن بوطننا قوم يقال لهم الترك، لا شيء لهم من دعائم الإسلام ويظلمون الناس ولا يعبؤون بالعلماء والأولياء...".²⁶⁶

- كثرة الثورات التي أرهقت سلطة الدايات وأدت إلى بداية تفكك الدولة وانهارها، كما أشرنا سابقا بسبب الظلم والتعسف، مثل: ثورة ابن الأحرش 1803م وثورة الدرقاوي سنة 1802 وثورة التيجاني سنة 1826م.

- انتشار فكر قتل الدايات لأسلافهم وتولي السلطة بدلا عنهم، حتى بلغ الامر بالديوان إلى أنه لم يجد من يحكم الجزائر، ففي سنة 1808م ثار الانكشارية ضد الدايا أحمد ودخلوا قصر الجينية وأطلقوا عليه النار ثم قطعوا رأسه، ولأن جميع القادة رفضوا تولي المنصب فإنه بقي شاغرا، ولذا قرر الانكشارية الدخول إلى القصر وأول من يصادف طريقهم يعينونه دايا على الجزائر، فالتقوا مع غسال الموتى علي فنصبوه دايا على الجزائر، ولم يمضي على توليه الحكم سوى أشهر حتى عاث في البلاد فساد وظلما، فقررت الانكشارية اغتياله مجدد وفعلا قتل علي الغسال سنة 1809م.²⁶⁷ ولم تقتصر عمليات القتل هذه على الدايات فقط بل كان للبايات نصيب منها، حيث قتل الكثير منهم من قبل الراغبين في السلطة أو لكثرة جورهم، " فبعد أن

²⁶⁵ محمد بن يوسف الزياني، مصدر سابق، ص 287.

²⁶⁶ المصدر نفسه، ص 272.

²⁶⁷ عزيز سامح أتر، مرجع سابق، ص 594.

رفض الباي بوكابوس الالتحاق بالحرب الجزائرية التونسية، أعطى الداى أوامره للأغا عمر بقتله، فسار إليه في جمع من الجيش التركي فأقدم في البداية على اغتيال جميع أبنائه ثم عكف إليه فقتله وملاً بطنه تبنا وأرسله إلى داي الجزائر.²⁶⁸

- تحول جنود البحرية الرياس من مقاتلين وغازين للسواحل المسيحية إلى مرتزقة تبحث في الكثير من الأحيان على المال والغنائم، وهذا حتما ما أثر على الاقتصاد الجزائري.

- تناقص عدد الأسرى أواخر عهد الدايات بشكل كبير، فبعد أن كان عددهم الآلاف خلال القرن السابع عشر لم يبقى في الجزائر "سنة 1830م سوى 120 أسيرا".²⁶⁹

- إن نظاما كان يقوم على عائدات الغنائم لابد له أن ينهار في يوم من الأيام، وهذا ما حدث عندما تراجعت عائدات الغنائم البحرية أواخر العهد العثماني، أين بدأ الاقتصاد الجزائري في الانهيار بشكل رهيب، حيث كثرت الثورات والانقلابات داخل دواليب السلطة كما رأينا.

- في الوقت الذي كانت تتطور فيه السفن الحربية الأوروبية، وذلك باختراع مدفع الهاون والسفن العالية *Ship of The Line*، كانت الجزائر لا تزال تستخدم سفنا من نوع الغليوطة والشباك والبريك والغراب... إلخ وهي سفن كانت تستخدم خلال هذه الفترة في أوربا بالصيد البحري.²⁷⁰

- تمكن الجزائريون من إنهاء الوجود الاسباني على السواحل الجزائرية، وذلك بتحرير وهران سنة 1792م، وتوحيد الجزائر واستقلالها عن أي احتلال أوروبي.

²⁶⁸عبد القادر بلغيث، الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة وهران، 2014، ص77.

²⁶⁹Robert Davis, Esclaves Chrétiens, Maitres Musulmans, L'esclave Blanc en Méditerranée 1600-1800, Tr. Manuel Tricoteau, p.aris: Ed. Jacqueline Chambon, 2006, p315.

²⁷⁰قرياش بلقاسم، مرجع سابق، ص164.

المحاضرة السابعة

المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م

1- تركيبة المجتمع الجزائري.

2- العادات والتقاليد.

3- الاحتفال بالمناسبات الدينية.

لقد شهد المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني تنوعا واثراء في التركيبة الاجتماعية والعرقية والدينية، حيث عاش في الجزائر الأتراك والكراغلة والجزائريون واليهود والمسيحيون، ومارس أهل الذمة طقوسهم الدينية بكل حرية، حتى أن "أحد الآباء الفرنسيين لاحظ خلال إقامته في الجزائر أواسط القرن السابع عشر، أن زينة الكنائس الجزائرية تتفوق على كل زينة الكنائس الموجودة في إسبانيا".¹

1- تركيبة المجتمع الجزائري:

1-1- الأتراك: كان الأتراك المتواجدون في الجزائر عبارة عن أوليغارشية ذا سلطة متنفذة في الحكم والادارة والجيش، يملكون السلطة التنفيذية في اتخاذ جميع القرارات المسيّرة لشؤون البلاد، "حيث ترجع أغلب أصول هؤلاء الأتراك إلى الأناضول، وقد قدر بوتان عددهم بعشرة آلاف نسمة سنة 1808م".²

1-2- الأعلاج أو المهتدون: هم أولئك المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام، ولعبوا دورا بارزا في "تاريخ الجزائر الحديث"، وإنما وضعتهم في المرتبة الثانية قبل الكراغلة لاعتقادي أن هؤلاء المهتدون قد لعبوا دورا يتجاوز دور الكراغلة في الجزائر، ذلك أن منهم الحكّام وقادة البحرية والجيش وهذا ما لم يبلغه الكراغلة.

وتشير الدراسات إلى أن عدد الأعلاج قد مثّل نسبة معتبرة من الساكنة في الجزائر، حيث يحصي آلان جيمسون "وجود ثلاثمائة ألف مهتد على أراضي المغرب العربي في الفترة

¹ Ellen G. Friedman, "The Exercise of Religion by Spanish Captives in North Africa", Sixteen Century Journal, Vol 1, N°1, Apr 1975, p24.

² صابري محمد، فرح لخميسي، دراسة سوسيو تاريخية لعادات وتقاليد المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، م.07، جامعة الجلفة، الجزائر، ديسمبر 2022م، ص696.

الماضرة السابعة المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م

الممتدة بين سنتي 1550-1770م¹، كما شغلوا المناصب التنفيذية المختلفة، ولعلّ ما يبرز تتفّدهم هو تولي العديد منهم الحكم في الجزائر، أمثال حسن آغا السرديني أول حاكم مهتد على للجزائر، وحسن قورصو الكورسيكي ودرغووث باشا وعلج علي الايطالي ومراد رايس وجعفر باشا وحسن فينزيانو وغيرهم الكثير، وفي المقابل ترقى آخرون ليتولوا قيادة البحرية الجزائرية، ولعل منهم من أصبح قابودان باشا وقائدا أعلى للبحرية العثمانية قاطبة، أمثال علج علي وعلي بتشنيين².

1-2- الكراغلة: هم أبناء الأتراك من أمّ جزائرية، ويعني لقب الكرغلي "العبد أو ابن الجندي"³، وقد نمى عددهم حتى "بلغ بين سنتي 1816-1824م عشرون ألفا" وفق ما أورده بوتان في مذكراته⁴، في حين يقدم لنا بويي ما عدده خمسة عشر ألف كرغلي كانوا متواجدين في الجزائر سنة 1830م، شارك منهم فيلق يتكون من خمسة آلاف كرغلي في معركة سطاوالي ضد الفرنسيين⁵.

استقر الكراغلة في كامل ربوع الوطن وبخاصّة في المدن الكبرى مثل الجزائر العاصمة وتلمسان وقسنطينة وعنابة... إلخ، وقد سمح لهم الأتراك بممارسة التجارة والسيطرة على ملكيات الأراضي الزراعية وتولي العديد من المناصب الإدارية والعسكرية السامية التي حرم منها أهل

¹ Alan G. Jamieson, Lords of Sea, a History of the Barbary Corsairs, London: reaktion books ltd, 2012, p.60.

² قرياش بلقاسم، اعتناق الاسلام في الجزائر خلال القرن 16م، ملتقى دولي: البحر الأبيض المتوسط، مجال التنافس بين المسيحية والاسلام عبر التاريخ، جامعة بركة، الجزائر، 22/21 فيفري 2023م، ص05-06.

³ Maroc-Algérie : analyses croisées d'un voisinage hostile, Karthala, 2011, p17.

⁴ صابري محمد، مرجع سابق، ص696.

⁵ Pierre Boyer, "Le problème Kouloughli dans la régence d'Alger", Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N.8, 1970, p. 84.

الماضرة السابعة المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م

البلد، ما جعلهم "أكثر تعاليا وتكبرا أمام أحوالهم الجزائريين، ذلك أنهم طالما اعتبروا أنفسهم أتراكا بالدم".¹

1-4- الأندلسيون: تعتبر هذه الفئة من المهاجري الجزيرة الايبيرية بعد سقوطها تحت ويلات الاحتلال الاسباني والبرتغالي، وقد كان توافدهم تاليا على الجزائر طوال القرن السادس عشر والسابع عشر، حيث لعب الأندلسيون دورا بارزا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية الجزائرية، فمنهم من التحق بالبحرية أملا في الانتقام من أعدائه الإسبان الذين استباحوا أمواله وأولاده، "حيث تشير التقارير إلى أن أربعة عشر ألف طفل أندلسي قد أخذوا غصبا من أوليائهم وبيعوا عبيدا لكبار القساوسة ورجال الدولة الإسبان"²، في الوقت الذي عمل فيه آخرون في الهندسة المعمارية والحضارية حيث "يؤكد جون فوس أنّ الداوي قد كلف أحد الموسكيين ببناء قناتين لجلب المياه العذبة من الجبال المجاورة إلى الجزائر العاصمة"³، في الوقت الذي برز فيه آخرون في صناعة المنتوجات الحرفية حيث لم يكن لمنتجاتهم مثل ولا منافس.

1-5- الأشراف: ينسب أفراد هذه الفئة إلى آل البيت، وكانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية ودينية وسياسية مرموقة حيث تقلدوا مناصب القضاء والافتاء والتعليم... إلخ.

1-6- الحضر: يمثل الحضر فئة الجزائريين أو الساكنة الأصلية للمدن الكبرى، حيث فرض عليهم الأتراك تبعية مطلقة، "فلا يحق لأحد منهم حمل السلاح، كما أن ممتلكاتهم معرضة

¹ آيت حبوش حميد، الكراغلة ودورهم السياسي في الجزائر العثمانية، مجلة القرطاس، ع.02، جامعة تلمسان، جانفي 2015م، ص139.

² Pascual Boronat, Borrachina, Los Moriscos Españoles y su Expulsión, Vol.02, Valencia: Real Colegio de Corpus Christi, 1901, p.521-552.

³ John Foss, op.cit, p55.

للمصادرة بسبب أي خطأ قد يقترفونه في حق الأتراك، وهم في مجموعهم يشتغلون كعمال أو تجار".¹

1-7- البرانية: وهي فئة من الجزائريين اضطرتهم ظروفهم إلى التنقل للمدن الكبرى طلبا للرزق، وقد انقسمت هذه الفئة إلى مجموعات مختلفة، حيث أدت كل واحدة منها أعمالا تختلف عن الأخرى، ونذكر منهم:²

- **الأغواطيون:** قدم أغلبهم من مدينة الأغواط وقبيلتي الزناخرة وأولاد نائل، حيث يشتغلون في أعمال الوزن والكيل وبيع الزيت بالأسواق، في الوقت الذي يشتغل بعضهم الآخر في أعمال التنظيف ونقل البضائع.
- **الميزابيون:** هم القادمون من غرداية وبني يزقن وبريان وبني ميزاب وشعابنة وورقلة ممن يتبعون المذهب الإباضي، وقد اشتغل الكثير منهم في الحمامات والمقاهي وبيع اللحوم.
- **البسكرة:** اشتغل عامتهم في المهن البسيطة مثل تزويد المدن بالمياه وجمع الحطب.
- **جماعة القبائل:** هم الوافدون من مناطق جبلية كجبال جرجرة والبليدة والمدية وتلمسان، وامتحنوا البناء والحرث وغرس حقول التين والزيتون، كما عملوا لدى الأجانب المقيمين بالجزائر.
- **الجيجليون:** حظيت هذه الفئة باحترام كبير من قبل الأتراك الذين منحوا امتيازات كبيرة مثل حق حمل السلاح وارتداء الملابس التركية، وقد اشتغلوا في الأنشطة التجارية مثل: الدباغة وامتلاك المخابز والعقارات.

¹ هابنسترايت، مصدر سابق، ص32.

² صابري محمد، مرجع سابق، ص698.

1-8- أهل الذمة:

اليهود: لقد استقر عدد هائل من اليهود في وهران وبجاية والجزائر العاصمة وتلمسان وقسنطينة وتقرت والزاب؛ بالإضافة إلى أغنياء يهود ليفورنو الذين هاجروا إلى الجزائر خلال القرنين 16م و17م، وقد اشتغل أغلبهم في التجارة والوساطة حيث لعب كبرائهم دورا بارزا في توقيع المعاهدات لصالح الدول الأوروبية.¹

- الأوربيون: تنقسم هذه الفئة إلى مجموعتين، تتمثل الأولى في فئة الأحرار وتضمّ القناصل والتجار والآباء والقساوسة والموظفون في المؤسسات التجارية الأوروبية؛ أما الفئة الثانية فتتكون من الأسرى الأوربيون الذين يجلبون إلى الجزائر من خلال العمليات البحرية التي كان يقودها الرياس في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، وقد أحصى سيرفانتيس عددهم أواخر القرن السادس عشر بـ خمسة وعشرين ألفا، وارتفع عددهم ليبلغ سنة 1621م أكثر من إثنان وثلاثون ألفا.²

2- العادات والتقاليد:

1-2- المأكل والمشرب:

يؤكد توماس شاو أن "زراعة الفاصولياء والعدس، والبازلاء والبقول شائع جدا في الجزائر، حيث تزرع في أغلب الحدائق بداية من شهر مارس من كل سنة، ويتناول الجزائريون هذه

¹ ينظر: Michel Abitbol, The Jews of North Africa During the Second World War, Detroit: Wayne University State Press, 1989.

² Abla Gheziel, "Captifs et captivité dans la régence d'Alger (xviiie- début xixe siècle)", Cahiers de la Méditerranée, 87, 2013, p.80.

المحاضرة السابعة المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م

الحبوب طوال فصل الربيع، حيث تطبخ باستخدام الزيت والثوم، وتعتبر الطبق الرئيسي لأغلب الفئات الاجتماعية في الجزائر.¹

في الوقت الذي تعتمد فيه القبائل العربية في مأكلاها في الغالب على "الخبز والحليب والأزباد والتمور والكسكس أو ما يحصلون عليه من خلال مقايضتهم لصوف أغنامهم"، حتى أنهم لا يطعمون أنفسهم أيّ لحم إلا نادرا؛ وذلك رغم امتلاكهم لعدد هائل من الأغنام والجمال.² ويعدّ الجزائريون أطباقا متنوعة تختلف من منطقة إلى أخرى، فمنها ما يوقد على النار فيغلي، أو يشوى... إلخ، بالإضافة إلى أن غنى و فقر الفرد الجزائري يؤثر بشكل جلي على نمط التغذية الذي يتبعه الفرد، فتجد "الاغنياء من الأتراك والجزائريين يضعون العديد من الأطباق على طاولاتهم رفقة اللوز والتمر والسكريات والحليب والعسل"، ويذكر شاو "أنه رأى في بعض ولائم الجزائريين أكثر من مائتي طبق منها أربعون على الأقل مختلفة عن بعضها البعض، غير أن هذا النوع من الرفاهية ليس متاحا لجميع الجزائريين وقد يقتصر على ساكنة المدن الكبرى فقط، فعلى سبيل التمثيل لا الحصر لا يوجد الكثير من أدوات ووسائل الراحة بالنسبة للبدو وسكان بلاد القبائل، حيث تنحصر مقتنيات الأمير أو الملك نفسه على وعاء أو وعاءين من الخشب بالإضافة إلى قدر وغلاية، وذلك هو جميع أثاث مطبخه".³

أما عند الحديث عن أكثر المشروبات استهلاكا في الجزائر فإن القهوة كانت هي سيدة المطبخ الجزائري دون منازع ولا منافس، حيث أشار لها الكثير من الرحالة باعتبارها "سلعة commodity متداولة بشكل واسع في أوساط الجزائريين"⁴، فتؤكد ماريا مارتين التي كانت أسيرة

¹ Shaw Thomas, Travels, Or Observations Relating to Several Parts of Barbary and the Levant: Illustrated, London, 1757. p256.

² Ibid, P310.

³ Shaw Thomas, op.cit, p417.

⁴ Marita Ervin, Coffee and the Ottoman Social Sphere, University of Puget Sound, 2014, p05.

المحاضرة السابعة المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م

في تنس "أن الجزائريين يقبلون على تدخين غليوناتهم وشرب القهوة مباشرة بعد تناول الطعام"¹، في حين تحصي فلييتا من نابولي "وجود خمسة مقاهي في الجزائر العاصمة سنة 1830م"². والحق أن الكثير من الكتاب والأسرى الأوروبيين ممن دوّنوا مذكراتهم قد تعرضوا للقهوة "كمنتوج يرمز للكسل وتضييع الوقت"، حيث يؤكد ستيفن ويلسن جيمس بقوله: "يضيّع كلا الجنسين أغلب وقته في تضييع الوقت والكسل، فأما بالنسبة للرجال فيقضون وقتهم في احتساء القهوة والتدخين، في حين نقضي النساء وقتهن في الخياطة والاعتسال..."³. لم يستخدم ستيفن كثيرا مصطلح *Turk* في عمله كغيره من الكتاب، ولكن عندما كان يستخدم ذلك المصطلح فإنه كان يقصد به دائما مصطلحات مرادفة "للأتراك الكسالى *Lazen*، الخاملون *Indolence*...ولهذا فقد صور ستيفن القهوة كمشروب يعبر عن عادة تركية ترادف "الإنسان التركي الكسول" وأعطى صورة نمطية عن الأتراك الجزائريين، عبّر عنها في جمل كالاتي: "يقضي الأتراك معظم وقتهم في التدخين وشرب القهوة والخمول"، "يقضي الأتراك معظم وقتهم في المقاهي يرتشفون القهوة، ولا يخصصون أي وقت للقراءة لكي يحسنوا من تفكيرهم..."⁴.

وفي المقابل لا تعتمد طريقة تناول الجزائريين للطعام على المرتبة الاجتماعية، فلا يختلف الباشا نفسه في تناول طعامه عن الطريقة التي يتبعها البديويون في الأكل، حيث "يقوم الجزائريون في البداية بغسل أيديهم، ثم يقومون بأخذ جلسة القرفصاء أمام الحصيرة أو الطاولة

¹ Maria Martin, History of the captivity and sufferings of Msr. Maria Martin, Boston, Printed for W.Crary, 1807.

² Khalid Bekkaoui, White Women Captives in North Africa, Narratives of Enslavement, 1735-1830, UK: Palgrave Macmillan, 2010, p255.

³ Stevens James Wilson, An Historical and Geographical Account of Algiers. Philadelphia: Hoagan&M'Elroy, 1797, p.143.

⁴ Ibid.

الصغيرة التي توضع عليها الأطباق، كما أنهم لا يستخدمون في الغالب أي سكاكين أو ملاعق ولا يرفعون الطعام نحو أفواههم إلا باستخدام اليد اليمنى".¹

2-2- اللباس والزينة:

وفيما يخصّ اللباس الجزائري، فتزودنا ماريا مارتين بمعلومات جد مهمة حيث "يرتدي الرجل عباءة فضفاضة تكون أكبر مرتين من الجسد، ويضع على خصره حزاما بداخله سكين أو سكينان يشبهان الحربة، كما يجعل على رأسه عمامة أو وشاحا ملفوفا، ويلبس نعلا أو بالأحرى جوارب من الجلد المغربي المدبوغ، وتكون في الأغلب قصيرة بحيث تغطي جزءا من الساق؛ في الوقت الذي تلبس النساء عباءات فضفاضة ويضربن على رؤوسهن بخرم يغطي شعورهن، كما أن بعضهن يربطن شعورهن في شكل عقد في حين تطلقه أخريات على ظهورهن، كما يغطين رؤوسهن بقلنسوة حمراء أو قبعة جوانبها مطرزة بالقطن، ولعل أحد أشهر ما ترتديه النساء هو الحايك الذي يليبس فوق ثيابهن، ويتزين بحلقات توضع في الأذن وقلائد على العنق تكون ذا قيمة مادية كبيرة".²

ولعلّ أشهر ما كانت النساء الجزائريات ترتدينه خلال العهد العثماني هو الحايك والمحرمة أو المكرمة، والشاشية أو الكوفية وعباءة الملاية والعصابة التي تزينها النساء الغنيات باللؤلؤ وأخريات بالفضّة، والبنيقة والعجار أو البرقع والملايا، وتلبس المرأة الجزائرية أيضا القفطان أحد أشهر الألبسة النسائية حيث يرجع أصله إلى الأتراك، بالإضافة إلى الكراكو والجبّة أو القندورة، كما تضعن في أرجلهنّ القبقاب والشبرلة والبابوش المطرّز بالذهب.³

¹Shaw Thomas,op.cit, p41è-418.

²Maria Martin,op.cit, p51-52.

³ ينظر: نفيسة لحرش، تطور لباس المرأة الجزائرية، تق: عبد الحميد بورايو، ط2، دار الأنوثة للنشر، الجزائر، 2007م.

ويشيع بين الرجال ارتداء اللثام والعمائم والبرنوس والقشابية والصدرية والجدادولي وغيرها من الألبسة الأخرى التي يختلف ارتداؤها حسب المكانة الاجتماعية والمالية للرجل.

وأما الأطفال فيختلف لباسهم على حسب المكانة الاجتماعية، حيث أن "أبناء البدو أو المناطق المجاورة للمدن لا يرتدون شيئاً على أجسادهم حتى يبلغوا سنّ السابعة أو الثامنة".¹

2-3- الزواج:

لقد كان اختيار شريكة الحياة بالنسبة للجزائري يتم عن طريق "الواسطة"، أين تتولى امرأة عجوز صديقة للعائلة اقتراح إحدى البنات على الوالدة، كما أن "الزوج لا يذهب لمراسم الخطبة حيث يبدي موافقته على الزيجة من خلال الوصف الذي يقدمه لها والد الفتاة"²، حتى أن من عادات بعض العائلات الجزائرية حجب الفتاة عن أعين الناس منذ سنّ التاسعة باستثناء المحارم، ولا تشاهد المرأة إلا في الحمامات وحفلات الزفاف.

ففي إحدى الوثائق المؤرخة سنة 1831م "التقى السيّد محمد الجنّادي ابنه في مقهى بجامع القايد صفر وأعلمه بأنّه اختار له زوجة ودفع عنه المهر، فقبل الابن وأعطى والده مبلغ الصّداق".³

وبعد اتفاق الطرفين على الزيجة، "يقوم الرجل بدفع الصّداق الذي على عاتقه لوالد الخطيبة، كما يرسل لزوجته هدية تتمثل في الفواكه واللحوم"⁴، ثم يكون حفل الخطبة أين يعرف

¹Maria Martin, op.cit, p11.

²John Foss, op.cit, p81.

³نجوى طوبال، مرجع سابق، ص179.

⁴ John Foss, op.cit, p81.

الماضرة السابعة المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م

في المجتمع الجزائري "بالفاتحة أو الخطبة"، حيث يجلب الإمام إمّا للبيت أو في المسجد أين يتم عقد قران الزواج على الطريقة الشرعية الإسلامية.

وما إن تنتهي الخطبة حتى "يوزّع العريس الشاربات على الحاضرين"، ويرى جون فوس "أن أهل العريس يقيمون حفلا موسيقيا بمناسبة عقد القران الشرعي على شرف أقرباء زوجته".¹ ولا يلتقي الخطيب خطيبته إلا يوم الزفاف، فترتدي الزوجة ثمانية أيام قبل العرس أفخم ثيابها وتتأنق تأنقا بهيجا يليق بهذا اليوم، حيث توضع في خدمتها ومرافقتها أربعة نسوة؛ فلا يسمح لأي شخص بالحديث مع الزوجة باستثناء والديها وهؤلاء النسوة.

أما بالنسبة للزوج "فإنه يتجول في المدينة مرتديا برنوسا أحمرًا وعلى جانبه سيف رفيع ووشاح ملقى على وجهه ليحول دون تأثير عين الشيطان على جسده... وبعد أن يجتمع بالأصدقاء والأقارب ويصلي معهم في بيته، يلتحق ببيت زوجته لحضور مراسم الزفاف".² وما إن يصل الزوج بيت زوجته حتى تقوم المرافقات النسوة بسحبه من يديه وأخذه إلى المكان الذي تجلس فيه الزوجة التي تقوم إليه فتقبل يديه ورجليه، حيث يعتبر هذا الفعل إعلانا عن تبعيتها وتشريفًا لزوجها.³

تُحمل بعدها الزوجة إلى البيت الزوجي من قبل المرافقات، وما إن تصل سالمة إلى زوجها، حتى تجتمع النسوة اللاتي حضرن الزيجة جميعهن ويمشين في الشوارع ليعلن عن

¹ John Foss, op.cit, p82.

² سبنسر ويليام، مرجع سابق، ص 117.

³ John Foss, op.cit, 83.

الزيجة بشكل واسع من خلال الزغاريت التي تطلقها، فيمكن سماع أصواتهن على بعد ميلين كاملين.¹

وقد اختلف المؤرخون في عدد الزوجات اللاتي يتخذهم الرجل الجزائري لنفسه، فيرى "جون فوس أن الجزائري يتزوج بين الإثنتين والثلاثة نساء"، في حين يذهب شالر إلى التأكيد بأن "أغلب الجزائريين يتزوجون بامرأة واحدة لا أكثر ولا أقل".²

3- الاحتفال بالمناسبات الدينية:

لقد كان الجزائريون يولون أهمية بالغة للاحتفالات الدينية خاصة وأن الفكر الصوفي كان يعمّ السلطة والثقافة الاجتماعية علماء وأفرادا، وهذا ما جعل من هذه الاحتفالات تعبيرا مباشرا عن المكنون الديني المقدس الراسخ في الجزائريين.

فيذكر ابن حمادوش أن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في الجزائر أكثر سخبا وزينة من ذلك الذي وجدته في فاس، فيقول: "لقد لقيت في فاس الطبالين والعياطين وآلات الطرب كلّها في السوق، ذاهبين بأربعة قباب من الشمع كل واحدة من لون خضراء وأخرى بيضاء وأخرى حمراء"، كما كان الشعراء يكتبون أشعارا سنوية كلّما أهدّ عليهم يوم المولد النبوي الشريف.³

¹ John Foss, op.cit, p82.

² شالر ليام، منكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تر. اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص86.

³ عبد القادر خليفي، احتفالية المولد النبوي الشريف في الجزائر، مجلة العلوم الانسانية، ع.10، جامعة وهران، جانفي/جوان 2016م، ص19.

الماضرة السابعة المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م

ويحتفل الجزائريون بالمولد إما في بيوتهم أو في المساجد حيث تلقى هناك الخطب والمواعظ عن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ويذكر هايدو بقوله: "تحضر العائلات الجزائرية ليلة المولد طبق الكسكس مرفوقا باللحم، كما يضعون بعض الأطباق على الشرفات والساحات والطرقات معتقدين أن النبي صلى الله عليه وسلم سيزورهم في هذه الليلة".¹

وأما عن الأعياد فيؤكد جون فوس الأسير الأمريكي قائلاً: "بمجرد إعلان يوم عيد الفطر حتى تنطلق الاحتفالات والولائم التي تستمرّ يومين كاملين، وخلال هذين اليومين يتم الإغلاق عن الأسرى غير أنه يمنح لهم رغيف خبز من اللون الأبيض لذيق الطعم"²، في حين يورد هابسنرايت الإعلان عن عيد الفطر بقوله: "ما إن يصل الخبر برؤية هلال العيد إلى الداي حتى يعطي أوامره بإطلاق القذائف من المدافع إيذاناً بالعيد، وقد جرت العادة أن يلتقي الناس بعضهم البعض في اليوم الأول من عيد الفطر فيلقون السلام ويتبادلون التهاني"³، ويتبادل فيه الجيران والأفراد الحلويات والهدايا حتى أن الجزائريين كانوا يطلقون عليه سكر بيرام أي عيد السكر.⁴

ويرتدي الساكنة أجمل ما لديهم من الثياب وخاصة الأطفال، حيث تكون نوعية وجودة هذه الملابس مرتبطة دائماً بالحالة الاجتماعية للفرد، فيرتدي الغني الثياب المطرزة بالذهب والفضة والسراويل المصنوعة من الصوف أو القطن، ويذكر هاينريش "أنّ الجزائريين القاطنين

¹Haedo, op.cit, p146.

²Foss John, op.cit, p25.

³ هابسنرايت، رحلة العالم الألماني إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م، تر.ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الاسلامي، تونس، الطبعة الاولى، 2008 ص 47.

⁴ توتة إسماعيل، الممارسة الدينية في الجزائر العثمانية من خلال الكتابات الأجنبية، ملتقى تاريخ الجزائر الديني في العهد العثماني، مخبر دراسات الفكر الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس، 07/06 مارس 2018م، ص05.

المحاضرة السابعة المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م

في المدينة يرتدون أجمل الثياب على عكس أهل الأرياف الذين لا يعطون بالا لارتداء الثياب"، كما تخرج النساء إلى الميادين والساحات العامة حتى أن عددهن قد يعادل أو يزيد عن عدد الرجال.¹

وتقدّم الهدايا والنقود للأطفال، كما يوجد في باب الواد عجوز تركي يقوم بإدارة عجلة كبيرة فوقها عدد من الأطفال وهم يمرحون، ويستيقظ الناس يوم العيد على أنغام الموسيقى الصاخبة التي يعزفها السود...".²

وما إن يمضي شهرين على عيد الفطر حتى يبدأ الجزائريون بالتحضير لعيد الأضحى الذي يطلقون عليه "كيوك بيرامي" تأثراً باللغة العثمانية³، فيذبحون الأضاحي قربانا لله سبحانه وتعالى، فأما الأغنياء فيذبحون "بقدر عدد أفراد العائلة"⁴ في الوقت الذي يذبح الساكنة البسطاء شاة واحدة فقط، وفيما يخصّ الداوي؛ فبعد أن يؤدي صلاة العيد في مسجد الحواتين، يقوم بالإشراف على عملية ذبح الأضحيات حيث تكون هذه الطقوس مصحوبة بطلقات البنادق والموسيقى العسكرية، لتفتح بعدها أبواب قصر الداوي فيقدّم الكسكس للحاضرين.⁵

وكان الجزائري يولي أهمية بالغة بالحجّ كيف لا وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، فيتمنى كلّ فرد زيارة الكعبة في يوم من الأيام، وأما عن طقوس التحضير لهذه الشعيرة، فيذكر

¹ هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في غربي شمال أفريقيا، ج1، تر. أبو العيد دودو، دار الأمة، الجزائر، 2008م، ص66.

² توتة إسماعيل، مرجع سابق، ص06.

³ سبنسر ويليام، الجزائر في عهد رياس البحر، تر. عبد القادر زيادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006م، ص 120.

⁴ Haedo, topographie et histoire générale d'alger, traduit, de l'espagnol par, Monnerau, et Berbrugger, imprimé, valladolid, 1870, p 145.

⁵ توتة إسماعيل، مرجع سابق، ص06.

المحاضرة السابعة المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م

الورتلاني ما مفاده "أن حاكم الجزائر العاصمة كان يعطي أوامره للشيخ سيدي الموهوب من أجل ضرب الطلب إذانا ببدء موسم الحج".¹

وما إن تغد الأخبار بانطلاق الموسم حتى يشرع السكان في إعداد البغال والخيام وشراء الحبوب المجففة كالقول والعلف والرواحل والجمال والخيول وكرائها، ويحتشد الناس في جماعات للحديث عن الحج والتحضيرات المزمع القيام بها.²

وهكذا يشرع الركب في السير نحو البقاع المقدسة "فيما عدده في بعض الأحيان ثلاثمائة حاج"³، متبعا الطرق الاعتيادية حيث يمر عبر طريقين: تدعى الأولى الطريق العلوية التي لا تخضع لسلطة العثمانيين وتمر عبر أوكرت، تميمون، المنيعه، واركلا، تماسين، تقرت، واد سوف، الرياح، وادي العلدنة وتنتهي إلى المدخل الجنوبي الغربي التونسي، في حين تسمى الثانية الطريق السفلية وهي تابعة للسلطة الجزائرية، وتمر عبر بلاد توات إلى إقليم قرآن جنوب ليبيا حتى تصل إلى البقاع المقدسة⁴، وهناك طريق ثالث يمر عبر قسنطينة وصولا إلى تونس ومن هناك يأخذ الحجاج طريق البحر، فيذكر الورتلاني طريق رحلة حج أحد الركب قائلا:

¹ الورتلاني، الرحلة الورتيلانية نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ج01، تع. ابن مهنا القسنطيني، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2006، ص14.

² سليمان دهان، "تنظيم ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني"، مجلة أفكار وآفاق، ع.2، جامعة الجزائر، 2017م، ص21.

³ الورتلاني، مصدر سابق، ج01، ص43.

⁴ الشريف الزهار، ص52.

الماضرة السابعة المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م

"ولمّا ودّعت أهل بجاية رجعنا إلى دارنا عازما على السفر وجاءنا الريب من جبل زاووة نحو
الثلاثمائة رجل واشتغلنا بهم إلى أن ذهبوا إلى قسنطينة ثم إلى تونس ليذهبوا في البحر".¹

¹ الورتيلاني، مصدر سابق، ص43.

الحاضرة الثامنة

الاقتصاد والتعليم في الجزائر 1591-1830م

- 1- الاقتصاد الجزائري خلال العهد العثماني
- 2- التعليم خلال العهد العثماني.
- 3- المؤسسات الثقافية.

تعالج المحاضرة التالية الوضعية الاقتصادية والتعليمية في البلد خلال الفترة العثمانية، وتأثير الوضع السياسي إيجابا وسلبا على تطورهما؛ فبالنسبة للتعليم فقد استطاع الكُتاب والمسجد والزاوية توفير التعليم الأساسي كالقراءة والكتابة وارتكز في تلقينه على نشر الحاجات الدينية للمجتمع، فانتشر التعليم في جميع ربوع الوطن، غير أن أغلب طلبة العلم لم يواصلوا تعليمهم بسبب ظروفهم الاقتصادية.

1-الاقتصاد الجزائري خلال العهد العثماني:

لقد بنيت مداخل الاقتصاد الجزائري خلال الفترة الحديثة على عاملين أساسين هما: "العائدات البحرية والجبائية"، حتى أن بروتونيير قائد الحصار الفرنسي على الجزائر أكد في رسالة وجهها إلى السلطات الفرنسية مؤرخة في 24 أفريل 1829م " أن الحصار على الجزائر العاصمة ليس إلا مضيعة للوقت، ذلك أن الشعب الجزائري لا يمارس أي تجارة خارجية".³²⁰ ويثبت الجدول التالي دور العائدات البحرية في العائدات الجزائرية؛ رغم تراجع الاقتصاد أواخر العهد العثماني 1798-1815م:³²¹

الجدول رقم 01: نسبة العائدات البحرية 1798-1815م

السنوات	إجمالي المداخل	العائدات البحرية	نسبة المداخل البحرية
1798-1799م	3.370.000 فرنك	870.000 فرنك	25.8%
1800-1802م	2.770.000 فرنك	270.000 فرنك	9.7%
1804-1810م	2.625.000 فرنك	125.000 فرنك	4.8%
1811-1815م	3.125.000 فرنك	625.000 فرنك	20%

³²⁰ أرزقي شزيتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011، ص189.

³²¹ Daniel Panzac, Barbary Corsairs, The End of a Legend 1800-1820, Tr. Victoria Hobson, LEIDEN: Brill, 2005, p.131.

ولعلّ ما يمكن ملاحظته في الجدول أن العائدات البحرية قد تراجعت تراجعاً رهيباً، حتى بلغت في بعض الأحيان نسبة لا تتجاوز الـ 4,8 بالمائة من إجمالي المساهمة في الاقتصاد العام للبلاد، وهي نسب منخفضة إذا قورنت بعائدات القرن السادس عشر والسابع عشر البحرية.

ففي سنة 1616م تمكن الجزائريون من الاستيلاء على ثلاثة ملايين جنيه من الفرنسيين ثم تمكنوا من أخذ ثمانين سفينة فرنسية خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1628-1634م، كان على متنها 1331 شخصا تقدر قيمتهم بـ 4.752.000 باوند³²²، ويحصي بلايفر "أنّ الجزائريين استطاعوا أسر خمسة أو ستة آلاف بريطاني، واستولوا على 350 سفينة في الفترة الممتدة بين سنتي 1674-1681م³²³، في حين تؤكد قائمة نشرها آرثر هاربرت في لندن سنة 1682م، أن "الجزائريين قد استولوا على مائة وثلاثة وخمسين سفينة بريطانية خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1677-1682م.³²⁴

وأما فيما يتعلق بالجباية فقد كثرت حتى أثقلت كاهل السكان المحليين، فعمّت الثورات في الشرق والغرب، فما كان العثمانيون يطفؤون ثورة حتى تندلع أخرى، "ومن هذه الضرائب نذكر اللزمة التي كانت تؤخذ مقابل صدّ الهجمات المسيحية على الجزائر، بالإضافة إلى ضريبة الدنوش التي كان يدفعها البايع إلى الدايع كلّ ستة أشهر وأما الدنوش الكبرى فتجمع كل ثلاثة سنوات بعد أخذها عن الساكنة المحليّة، وتحصي التسجيلات أن قائد بايلك الغرب كان "يدفع في بعض الأحيان عشرين ألف دورو للدايع نقداً، نصفها من الذهب

³²² Stanly Lane-Poole, op.cit, p234.

³²³ Playfair, Scorage..., op.cit, p47.

³²⁴ Adrian Tinniswood, Pirates of Barbary, Corsairs, Conquests, and Captivity in The Seventeen-century Mediterranean, New-York: The Penguin Group, 2010, p151.

والأحصنة والعبيد السود والحريير الفاسي والتلمساني وعشرون قنطارا من الشمع والعسل والزبدة والجوز، في حين أن قيمة الدنوش القادمة من الشرق كانت أكثر قيمة خاصة وأنها تشتمل على منتجات قادمة من تونس كالعطور والألبسة".³²⁵

ولم تتوقف الضرائب عند هذا الحد فحتى القبائل الكبرى التي كانت تباع منتجاتها في الأسواق الجزائرية كان عليها دفع ضريبة للسلطات التركية، فمثلا: "أرسلت قبائل جرجرة إلى الداوي مبعوثا تقاوضه من أجل السماح لها ببيع منتجاتها المتمثلة في الزيت والحبوب في كل من أسواق عنابة وقسنطينة، وفعلا وافق الداوي أن تدفع هذه القبائل ستمائة ريال بيجو".³²⁶

وأما الزراعة فقد تميّز البلد بمنتجاته الفلاحية التي صدرت إلى الكثير من الدول، فمنها: القمح القطن والتبغ والذرة والأرز والخضروات بجميع أنواعها... وأحيطت المدن والأرياف بجميع أنواع أشجار الفاكهة كالتين والزيتون... إلخ؛ وقد كان القمح أكثر المنتوجات الزراعية تصديرا إلى الخارج، ويصف دالام وصوله الجزائر العاصمة سنة 1595م، قائلا: " لقد انبهرنا بالربيع: فالأشجار مكسوة بالخضرة، والأرض عليها الحبوب والقمح والشعير، بالإضافة إلى تفاح وبرتقال صغير لا يزال عالقا على الأشجار".³²⁷

ويضاف إلى المداخل السابقة ما كان يدفعه الأوروبيون من أجل توقيع السلام مع الجزائريين، وحماية تجارتهم من التعرض لهجمات الجزائريين، "ففي سنة 1788م جدد

³²⁵ ينظر: ابن الزهار، مصدر سابق.

³²⁶ Ouali Hamadache, Le commerce Intérieur de L'Algérie à l'Epoque Ottoman (1519-1830), Ville d'Alger comme exemple, AL HIWAR AL MOUTAWASSITI, Vol.13 (n°2), Sept 2022, p56.

³²⁷ Gerald Maclean, Nabil Matar, Britain and The Islamic World, 1558-1713, New York: Oxford University Press, 2011, p.15.

الفرنسيون السلم مع الجزائر مقابل 200 ألف دولار سنويا، إضافة إلى هدايا ضخمة تمنح للسلطات الجزائرية كل عشر سنوات، في حين كلف السلم فرنسا خمسة ملايين دولار إسباني، في الوقت الذي دفع البريطانيون 280 ألف دولار".³²⁸

وحتما فإن العائدات الجزائرية لم تتطوي تحت مظلة الجباية والمداخيل البحرية فقط، بل امتد الجزء الكبير منها ليخضع إلى "سيطرة اليهود الذين تمكنوا من وضع أيديهم على تجارة القمح مع أوروبا، كما سيطروا على أغلب التجارة الخارجية حتى لقب المدعو بوشناق بملك الجزائر، نتيجة لتحكمه بالمال الجزائري، كما شكل اليهود أخطبوطا "أحاط بالاقتصاد الجزائري وهذا أمام تفرّج الدايات ومباركتهم، ولعلّ من أبرز هؤلاء التجار الذي ما انفكّ نفوذهم يزداد يوما بعد يوم: بكري وبوشناق نفظالي ويعقوب أبوكيا (ت1756م)، ودافيد دوران وكوهن آرون وبكري دافيد وسليمان كوهين وماروخي زاهوت وأبراهام كوهين وجوزيف كوهين وغيرهم الكثير"³²⁹ مما لا تقدر هذه الصفحات على حمله.

وفي المقابل استطاع التجار الفرنسيون وبمساعدة الغرفة التجارية في مارسيليا من توطين أقدامهم بالجزائر العاصمة والعديد من المدن الساحلية الأخرى، وترجع أولى العلاقات التجارية الفرنسية الجزائرية إلى تاجرين من مارسيليا هما: توماس لينشي وكارلين ريديي، حيث استطاعا سنة 1563م قيادة التجارة مع القبائل الواقعة بالقرب من سواحل عنّابة، ثم أسسوا وكالة تجارية عرفت باسم الباستيون الفرنسي، تكفّلت بصيد المرجان وشراء الحبوب من الساكنة المحلية، غير أن الباستيون لم يبقى على حياده كمؤسسة تجارية بل توسع نشاطه حتى تجرّأت السلطات الفرنسية وقامت بتسلحيه مثلما حدث أوائل القرن

³²⁸ Eugene Schuyler, American Diplomacy and Furtherance of Commerce, New-York: Charles Scribner's Sons, 1895, p.195.

³²⁹ ينظر: Jewish Social Studies, Vol. 14, 1952./ Bloch Issac, Inscriptions Tumulaires, Paris, 1888.

السابع عشر. وقد هدم الباستيون مجددا في عهد علي بتشنين بسبب تسليحه، غير أن الفرنسيين استطاعوا إقناع الباشا سنة 1640م؛ فاستعادوا مراكزهم في القل وعنابة مقابل أن يدفع التجار حوالي 17 ألف باوند.³³⁰

"فأسسوا الشركات التجارية لأجل التبادل التجاري مع الجزائر، ونذكر ومن هذه الشركات شركة جيمون (1821-1830م)، وشركة جوزيف باري... وغيرها من الشركات الفرنسية"³³¹، وقد استطاعت هذه الشركات القيام بصفقات جد مهمة مع الطرف الجزائري، ففي سنة 1750م تمكنت شركة تحمل اسم ليبيرينغي من تصدير حمولة إلى فرنسا تحتوي الصوف، والقمح، والجلود، ورؤوس الأغنام، والتمور، والكتان، وريش النعام، وغيرها من المواد، وفي السنة الموالية اشترت نفس الشركة من الحكومة الجزائرية في مزاد علني سفينة ذات 80 حمولة، أسرت عن نابولي، وتدعى فيكتور.³³²

2- التعليم خلال العهد العثماني:

2-1- وضعية التعليم:

يذكر الجنرال الفرنسي فالزي سنة 1834م، بقوله: "إن أغلب العرب يجيدون القراءة والكتابة"³³³، والحق أن التعليم خلال العهد العثماني قد كان منتشرا بشكل واسع في المراحل

³³⁰ E. Rouard De Card, Traités de la France Avec les pays De l'Afrique du Nord Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc, Paris, 1906, p22.

³³¹ Devoulx Albert, Relevé des principaux français ont résidé à Alger de 1686-1830, Revue africaine, 1871, p378.

³³² Ibid.

³³³ Laaredj-Campbell Anne, Changing female literacy practices in Algeria: Empirical study on cultural construction of gender and empowerment, Springer, 2015, p85.

الأولى، فنجد كما ذكر شاو أن أغلب الآباء كانوا "يوجهون أبناءهم نحو الكتاب بمجرد بلوغهم سنّ السادسة".³³⁴

ولم يقتصر التعليم على الأولاد بل كان متاحا أيضا للفتيات اللاتي كن يأتين إلى المساجد والجامع والكتاتيب "من أجل حفظ القرآن وتعلّم كيفية الصّلاة، ولهذا فغالبا ما كانت النساء تتعلّم القراءة والكتابة فقط، دون الحاجة إلى مواصلة الدراسة".³³⁵

وقد أوردت بعض المصادر والرحلات الأوربية التي زار أصحابها الجزائر معلومات هامّة في هذا الموضوع، فيذكر الكاهن الفرنسي بواريه سنة 1785م بما لا يدع مجالا للشك أنه رأى فتيات في البادية يدرسن في الكتّاب: "لقد كانت دهشتي كبيرة عندما صادفت مدرسة عامة في دوار الباي التابع لقسنطينة، حيث كان يشرف عليها مدرّس أعمى، محاط بحوالي عشرة فتيان وفتيات يعلمهن الكتابة والقراءة"³³⁶، في حين يؤكد لويس بيربروجر وجود مدارس وكتاتيب قرآنية خاصة بالفتيات، ويقول في هذا الخصوص: "لقد كانت هناك العديد من المدارس التي أنشأت خصيصا للنساء، يكون فيها المدرّس امرأة". وحتى أولئك النساء اللاتي كن لا يرسلن إلى المدارس؛ فقد تم تلقينهن القراءة والكتابة من قبل إخوانهن وآبائهن.³³⁷ كما يخبرنا مارسل إمريت: "أنه يتم بناء مدرسة -كتّاب- بجوار كل مسجد وزاوية وضريح أحد الأولياء الصالحين".³³⁸

ورغم اهتمام الآباء الجزائريين بتعليم أطفالهم أملا في حفظ القرآن، إلا أن أغلبهم لم يكن في مقدورهم مواصلة الدراسة ذلك أن الهدف العام منها كان تعليم الطفل مبادئ القراءة والكتابة، ولذلك فبمجرّد إنجائه المرحلة الابتدائية حتى "يتم توظيف الطفل مدّة ثلاثة أو أربعة سنوات في

³³⁴ Shaw Thomas, op.cit, p194.

³³⁵ Laaredj-Campbell Anne, op.cit, p85.

³³⁶ Ibid, p85-86.

³³⁷ Laaredj-Campbell Anne, op.cit, p87.

³³⁸ Ibid, p86.

وظيفة مؤقتة يتعلم فيها التجارة أو يلتحق بالجيش أو أي من المهن المتوفرة في البلد، وهناك عدد قليل من هؤلاء الأطفال ممن يحتفظون بما تعلموه، إذا استثنينا أولئك الذين يكملون الدراسة أو من يشتغلون في جباية الضريبة".³³⁹

2-2- العلوم المتداولة في الجزائر:

لقد غلب على مؤلفات علماء الجزائر التصوف والزهد، حيث لا يكاد يخلو مؤلف من أحد توجهات المذاهب الصوفية، وهكذا فإن أهم العلوم التي تداولها الجزائريون قد انحصرت في "الأحاديث الدينية والفقهاء والأصول والعلوم اللغوية"³⁴⁰، وبرز أيضا بعض العلماء المتميزين في علم التوحيد والعقيدة أمثال الفكون وعبد القادر الراشدي القسنطيني 1700-1800م.

وأما الشعر فقد قلّ بليغه وعود في الغالب بالشعر الشعبي الملحون، وبرز في هذه الفئة علماء من أمثال بن خلوف والناصري... وغيرهم، فراح أغلب الشعراء يكتبون بداعي قتل الملل والهوية فقلّ التجديد وكثر التقليد، خاصة وأن الشعر لم يكن يطعم خبزاً³⁴¹، وفي المقابل برز الجزائريون في علم الكلام، خاصة مع انتشار العقائد الأشعرية وسط علمائها، ومن أشهر علماء الجزائر في هذا العلم هو الصوفي السنوسي التلمساني "صاحب كتاب شرح أم البراهين".

الحق أن العلوم الطبيعية والتجريبية لم تكن سوى علومًا نظرية تركز على قراءة أعمال ومؤلفات السابقين دون ابداع أو إعادة استخدام لها في الحياة اليومية، وفي هذا الخصوص ينتقد توماس شاو سوء اهتمام الجزائريين بالرياضيات والطب، قائلا: "لقد التقيت في الجزائر كبير الفلكيين المكلف بضبط مواعيد الصلوات، حيث لاحظت أنه لا يعرف الكثير عن الفلك

³³⁹ Shaw Thomas, op.cit, p195.

³⁴⁰ زهية دباب، مرجع سابق، ص179.

³⁴¹ أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج02، ص243.

والملاحه، كما أنني لم ألتقي الكثير من الأطباء... غير أنني عندما التقيت طبيب الداي سألني قائلاً: هل يعرف المسيحيون "بوقراط"، بما معناه أبو قراط -يقصد أبقرات-، حيث يعتقد مثل باقي الجزائريين أنه أول طبيب عربي عاش قبل ابن سينا".³⁴²

ويواصل شاو قوله "أن الفنون والعلوم التجريبية قد بقيت على حالها كما ورثت عن الأجداد منذ قرون، فهي في أوضاع وظروف مزرية، فالعلوم التي تميّزوا فيها سابقا كالفلسفة والرياضيات والفيزياء والطب، هي اليوم تدرّس على نطاق ضيق فقط"، ويربط شاو سبب عدم رواج هذه العلوم في الأوساط الشعبية "إلى القسوة التركية وانعدام الحرية والأمان بين الجزائريين؛ كما أن الأتراك لا يهتمون بالتعلم ودائماً ما يسعون لزيادة ثروتهم من خلال التجارة، وكثيرا ما يتعجبون بشدة عندما يرون أحد المسيحيين وهو يستمتع بالتعلم والمطالعة، ويعتبرون ذلك مضيعة للوقت والمال"³⁴³، ويبدو أن التعليم قد ارتبط في الغالب بالعلوم الشرعية وتحفيظ القرآن، وهذه هي العلوم التي كان يراها الأتراك والجزائريون مهمة؛ خاصة وأن هذا النوع من العلوم يساعدهم في أداء صلواتهم ونسكهم وتحسين علاقتهم مع الله، كما يؤكد ويليام دافيس "أن الأتراك متعلقون جدا بدينهم، ويعترفون بالله، وبمحمد [صلى الله عليه وسلم] شفيعا لخطاياهم"³⁴⁴، في حين يذكر بفايفر "أن سيده يوسف خوجة قد تعلم القرآن وهو طفل صغير على يد مالكة في القسطنطينية"، وفي مدة قصيرة استطاع يوسف تعليم بفايفر اللغة التركية

³⁴² Shaw Thomas, op.cit, p195.

³⁴³ Ibid, p355.

³⁴⁴ Davies William, A true relation of the travailes and most miserable captiuitie of William Dauies, barber-surgion of London, vnder the Duke of Florence VWherein is truly set downe the manner of his taking, the long time of his slauerie, and meanes of his deliuerie, after eight yeeres, and ten moneths captiuitie in the gallies. Discovering many manye landes, ilandes, riuers, cities, and townes, of the Christians and infidels, the condition of the people, and the manner of their countrey: with many more strange things, as in the booke is briefly and plainely expressed. By William Dauies, barber-surgion of London, and borne in the citie of Hereford. London, 1614, P13.

والعربية والكثير من العادات والتقاليد الجزائرية والشرقية لأنه رأى في ذلك واجبا يقتضيه الدين الاسلامي³⁴⁵.

وذهب توماس شاو إلى أنه "وباستثناء دراسة القرآن وحفظه، فإن الجزائريين لا يعرفون الكثير من الكتب العلمية، حيث تقتصر المطالعة عندهم على كبار السن فقط، وأما المعلومات الجغرافية المتواترة لديهم فأغلبها يأتي مما ورثوه عن السابقين، ولذلك تحتوي أغلطا كثيرة، وحتى الكتابات التاريخية فهي مجرد مذكرات منقولة عن حضارتهم الإسلامية بالإضافة إلى مزيج من الروايات الخيالية والأسطورية التي تسبق العصر الإسلامي".³⁴⁶

ورغم أن كلام شاو يحمل بعضا من التضخيم إلا أن فيه الكثير من الصدق، ذلك أن المتأني في استظهار الوضع العام للتعليم خلال الفترة الحديثة، سيقف على أن التعليم كان كارثيا بآتم معنى الكلمة، فحتى العلوم الشرعية لم تسلم من ذلك السواد "حيث مزجها أهل الهوى والظلال بالسحر والشعوذة، فرحلة الورتلاني وعمل ابن الفكون " يثبتان ادعاء الكثير من غير أهل العلم العلم والنبوغ، في الوقت الذي لم "يكن هناك الكثير من العلماء في مجال الهندسة والرياضيات والمنطق والطب ... إلخ"، فقد استمر علماء العهد العثماني في استخدام كتب الرياضي الأندلسي القلصادي الذي توفي سنة 1487م، في حين "آمن العامة إيماننا راسخا أن جميع الأمراض قد تحتاج إلى عقار واحد"³⁴⁷، فانتشر الاعتماد على السحر والشعوذة والغيبيات بشكل واسع في أوساط الناس، وفي خضم كل هذه العتمة والسوداوية برز عالم متميز هو ابن حمادوش الذي اختصّ وتميّز في طبّ الأعشاب، حتى أنّ السكان قد استمروا

³⁴⁵ سيمون بفايفر، مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، تر. أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، 1998م، ص50.

³⁴⁶ Shaw Thomas, op.cit, p355

³⁴⁷ هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج. أو هابنسترايت 1732، تر. ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس،

في استخدام خلطاته العشبية حتى خلال الاستعمار الفرنسي، حتى أن كولن وصفه قائلاً: "لقد كان آخر طبيب عظيم برع في الطب العربي بالجزائر"³⁴⁸، وكل هذه الأوضاع جعلت من "الدايات وحاشيتهم وأعيان وأغنياء الجزائر يقبلون على الأطباء الأوربيين ويثقون فيهم دون غيرهم".³⁴⁹

وفي المقابل فإنّ فئة العلماء ورغم أنّها لم تلقى الاهتمام اللازم من قبل السلطة العثمانية؛ إلا أنّ نفوذها في الأوساط الشعبية الجزائرية كان بالغاً، وتناهى إلى درجة التقديس في بعض الأحيان، "فبعد أن ثار سكان مدينة عنابة سنة 1642م ضد السلطة التركية راسل الباشا يوسف الشيخ محمد الساسي البوني يطلب منه أن يتدخل لأجل وقف الثورة، وفعلاً نجح الشيخ في إخماد الثورة وإقناع المتمردين بوضع السلاح"، وفي حادثة أخرى رفض سكّان جبال كوكو بمنطقة بلاد القبائل تسليم الأسيرة الأنسة دي بورك للسلطات التركية وتحذوا الداي نفسه سنة 1719م، غير أن مراسلة واحدة من العاصمة إلى شيخ المنطقة ومفتي جيجل جعلت السكان المحليين يسلمون الأسيرة، وتذكر ماريا مارتين تفاصيل إطلاق سراحها قائلة: "ما إن وصل المفتي والشيخ حتى فرّ ملاكي إلى وجهة بعيدة خوفاً من المرابطين".³⁵⁰

وأما عن العلوم الطبيعية التي انتشرت في الجزائر العثمانية فيمكن "التأكيد على أنها قليلة جداً، مثل: تاريخ الطب والطب البديل، ويمكن أن يلاحظ الزائر أن الجزائر تفتقر لأساتذة ومدرّبين في هذا المجال، ذلك أنه لا يوجد الكثير من الأمراض في هذا البلد، سوى أوبئة إما

³⁴⁸ Gabriel Colin, Abderrezzaq El-Jezâiri: Médecin Arabe du XIIe siècle de l'Hégire, Montpellier, 1905, p39.

³⁴⁹ هابنسترايت، مصدر سابق، ص78.

³⁵⁰ DUNCAN Archibald, The Mariner's Chronicle: Being a Collection of the Most Interesting Narratives of Shipwrecks, Fires, Famines, and Other Calamities Incident to a Life of Maritime Enterprise, James cundee, 1805, p13-24.

أن تؤدي إلى الموت أو أنها تستمر لفترات طويلة، كما أن طبيعة المجتمع الجزائري لا تعتقد بفكرة العلاج، وتؤمن بالقضاء والقدر بشكل لا نقاش فيه، في حين يميل آخرون للسحر والشعوذة ... أو زيارة الحمامات الطبيعية أملا في التداوي بها".³⁵¹

ورغم التخلف الذي شهده الطب في الجزائر إلا أن هذا لم يمنع من وجود العديد من المستشفيات في الجزائر، فقد "بنى حسن آغا (1533-1542م) أول مستشفى سمي باسمه يضم خمسة غرف فقط"³⁵²، وأحصى دونيس "وجود أربعة وثلاثين مستشفى بالجزائر أواخر القرن السادس عشر"³⁵³، كما تخبرنا تسجيلات تعود لسنة 1665م "عن وجود خمسة مستشفيات في الجزائر"³⁵⁴، غير أن الأب مونري يؤكد سنة 1612م "أن الأتراك لم يمتلكوا أي مستشفى لأنفسهم، ولهذا كانوا يأتون إلى المستشفى الإسباني المخصص للأسرى من أجل التداوي"³⁵⁵، وهو المستشفى الوحيد الذي استمر وجوده لغاية سنة 1825م رغم إغلاقه سنة 1793م .

إن أغلب هذه المستشفيات كانت مخصصة للأسرى غير أن ذلك لم يمنع من تلقي الجزائريين العلاج فيها، حتى أن السلطة التركية كانت تستعين بأطبائها لأجل العلاج، والحق أن الكثير من هؤلاء الأطباء الذين اشتغلوا في هذه المستشفيات كان يتم اختيارهم بعناية وروية، "فبعد انتهاء عقد الطبيب أليكساندرو سان ميلان في الجزائر سنة 1763م طلب منه البقاء

³⁵¹ Shaw Thomas, op.cit, p358.

³⁵² ينظر: Haedo Fray Diego, Topographie et Histoire générale d'Alger, Tr. Mounreaut et Berbrugger, Alger, 1870.

³⁵³ Rang. S, Denis.F, Fondation de la régence d'Alger, Histoire de Barberousse, Chronique arabe du XVIe siècle sur un manuscrit de la Bibliothèque Royale , avec un appendice et des notes Tome2, p.aris: J. Ange éditeur, 1837.

³⁵⁴ Berbrugger A, "Charte des hôpitaux Chrétiens d'Alger, 1694", R.A, N°08, Alger 1949, p.135.

³⁵⁵ De Tassy Laugier, Histoire de Royaume d'Alger, Amesterdam: Henri du Sauzet 1837, p203.

لتميزه سنتين إضافيتين، في حين انهى مدير المستشفى الإسباني بالعاصمة الجزائرية مهام الطبيب أنطونيو فيليكس موراليس سنة 1778م، واستبدل بالطبيب ثيريانو كنيادا الذي اشتغل مدة عشر سنوات في مدريد".³⁵⁶

وبالإضافة إلى الأطباء الذي قدّموا خدمات جليلة للمستشفيات الأوربية المتواجدة في الجزائر، فهناك الكثير من الأطباء الذين جلبوا كأسرى إلى الجزائر فأغنوا ملاكهم، حيث يذكر أندرهيل قائلاً: "لو لم أكن عبدا لجمعت ثروة كبيرة من اشتغالي في الطب، غير أن الأموال كانت دائما ما تذهب إلى سيدي"³⁵⁷، ونذكر من هذه الفئة على سبيل التمثيل لا الحص: الطبيب الإيطالي أسانسي الذي اشتغل لفترة طويلة في الجزائر وقدم خدمات جليلة لصالح الداوي وكبراء الدولة، بالإضافة إلى الطبيب يوهان من أصل سرديني والطبيب مياري... وغيرهم الكثير".³⁵⁸

أوكلت مهنة التوليد للنساء الجزائريات واليهوديات، وذلك لمتطلبات تتعلق بطبيعة المجتمع الجزائري، فيذكر شوتنبيرغ: "أن مهنة التوليد قد أوكلت للقابات من النساء اليهوديات والجزائريات دون غيرهنّ، حيث كانت القابات الجزائريات تشتغلن على توليد النساء التركيات والعربيات، في الوقت الذي تكفلت اليهوديات بتوليد النساء من الطائفة اليهودية والمسيحية،

³⁵⁶ Ellen G. Friedman, "Trinitarian Hospitals in Algiers: An Early Example of Health Care for Prisoners of War, Catholic historical review, Vol.66, N°.04, 1980, p.554.

³⁵⁷ Updike Underhill, The Algerine Captive, or the life and adventures of Doctor Updike Underbill, six years a prisoner among the Algerines, New Hampshire, 1797, p35.

³⁵⁸ شونبيرغ، الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال، تر. أبو العيد دودو، منشورات وزارة الثقافة، 2004، ص66-68.

وقد نفى الكاتب ما كان يروج له في الأوساط الشعبية بأن القابلات اليهوديات أفضل من الجزائريات، وأكّدت أنهن لا يختلفن عن العربيات في المستوى والخبرة".³⁵⁹

وأما عن تدريس الرياضيات فيبدو أن أغلب المصادر التي أشارت إليها رأّت أنها علوم نظرية لم يكن الجزائريون على دراية كبيرة بها، فيذكر شاو: "أن الجزائريين لا يعرفون الكثير عن فروع الرياضيات... فحتى الأرباع والإسطرلاب والأدوات الرياضية التي ورثوها عن أجدادهم ينظرون إليها كأنجازات رائعة فقط بدلا من استخدامها في حياتهم اليومية... غير أنني لاحظت أن تقويماتهم تبدو مفيدة، ولديّ منها واحدة تعود إلى أسلافهم، حيث يتم حساب موضع الشمس والقوس النصفى النهاري والليلي وطول الشفق من أجل الحصول على مواقيت دقيقة للصلاة طوال أيام الشهر، وهي موضوعة في أعمدة جميلة"³⁶⁰ ، ويواصل: "إن جهل الجزائريين بعلم الحساب والجبر كبير جدا؛ رغم أن أجدادهم قد اخترعوا هذا العلم، كما قدموا إلى أوروبا حروف الجبر، ومع ذلك لا يزال التجار يجرون عمليات حسابية لمبالغ ضخمة من الأموال بأيديهم وباستخدام الذاكرة فقط... كما أن الجزائريين يعتقدون أن تجميع الأرقام وتكوينها بطرق مختلفة يمكن أن يساعدهم في كشف الكثير من الأسرار وتحفيز السحر وحتى علاج المسحورين" ، ويورد شاو في تأليفه تميمة تسمى "حرز المبارك" كان يستخدمها الجزائريون في الحصول على حظوة الأمراء واستلهاهم الشجاعة وتخويف العدو والاحتماء بها من الأمراض وكل الأشياء الضارة والمؤذية"³⁶¹.

³⁵⁹ شونبيرغ، مصدر سابق، ص 77.

³⁶⁰ Shaw, op.cit, p363.

³⁶¹ Shaw, op.cit, p363.

وعند الحديث عن الأدوات الموسيقية، فإن أغلب المصادر تشير إلى أن معظم هذه الأدوات التي كان يستخدمها الجزائريون هي لأجل الحاجة العسكرية، في حين يؤكد آخرون "أن الجزائريين يجيدون العزف على آلات موسيقية متنوعة، لكنهم لا يكتبون الكلمات التي يؤلفونها".³⁶²

3- المؤسسات الثقافية:

انتشرت المساجد بشكل كبير في مدينة الجزائر، حيث يذكر فونتير دي بارادي أن "الجامع الكبير" كان أكبر المساجد الموجودة في الجزائر العاصمة، ويتبع للطائفة المالكية حيث يشتغل فيه مفتيان وقاضيان، يلتقي كلهم يوم الخميس من أجل البث في قضايا العامة التي لا تستطيع المحكمة إصدار أحكام فيها، بالإضافة إلى تقسيم الموارث ويسمى هذا الاجتماع "مجلس الشريف"... وأما يوم الثلاثاء فهو يوم عطلة يقضيه القضاة والمفتين في منازلهم الريفية".³⁶³

وقد بلغت المساجد من القداسة ما جعلها مركزا "يفرّ إليه حتى المجرمين أو أولئك الملاحقون من قبل العدالة الجزائرية، فلا ينالهم أي عقاب ما داموا داخله، خاصة إذا كان المسجد تابعا لأحد الأولياء الصالحين -الزاوية-، كما يمكن للأسير المسيحي أن ينجو من العقاب إذ هو فرّ إلى أحدها قبل أن يقبض عليه على أن يوثق قدمه بسلسلة نهايتها عبارة عن كرة حديدية، أما في حال قبض على أحد اليهود داخلها فإنه يحرق أو يصلب حيا"³⁶⁴، غير أن الكثير من الرحالة والكتاب الأوربيين أكدوا أن أهل الذمة لم يكن يسمح لهم بدخول المساجد أصلا، سواء كانوا مسيحيين أو يهودا، ويذكر في هذا الصدد بلايفر " أن قسيسا دخل إلى أحد

³⁶² Ibid, p367.

³⁶³Paradis Venture De, op.cit, p157.

³⁶⁴Foss, John, A journal, of the captivity and sufferings of John Foss; several years a prisoner at Algiers: together with some account ... , 1800, p34.

مساجد العاصمة وهاجم الديانة المحمدية؛ فقامت السلطات بالإمساك به وأحرقه حيًّا³⁶⁵، ويذهب فونتير دو بارادي إلى أن "اليهودي أو المسيحي الذي يقع في مشكل مع أحد المسلمين؛ يحاكم في فناء مجاور للجامع ذلك أنه لا يسمح لهم بالولوج أصلاً إلى المسجد"³⁶⁶، في حين تؤكد المعاهدات الجزائرية الغربية إلى أن الأسرى والجالية الأوربية في حال وقوع شجار بينها وبين تركي أو جزائري فإن أفرادها يحاكمون وفق القانون التركي³⁶⁷ أي على الطريقة الحنفية. لقد بنيت المساجد الجزائرية بطريقة جيّدة وفخمة جعلها تعادل في جماليتها وضخامتها المباني الرئيسية الموجودة في المدن الجزائرية الكبرى حيث يمكن لعمرانها أن يوازي قصر الداوي والمستشفى الخاص بالأسرى، ويؤكد جون فوس: "أن مساجد مدينة الجزائر مبنية بشكل رائع".³⁶⁸ ويخبرنا دافيس عن وضعية المساجد من الداخل قائلاً: "إن المساجد التركية *Church* جميلة جدًا من الداخل، حيث يوجد بها مئات الشموع الموقدة، بالإضافة إلى أن أرضيتها مغطاة بالحصائر والمنسوجات، ولا يوجد فيها أي صور أو مقاعد للحاضرين، حيث يقوم الجزائريون بالصلاة وهم يمسكون بسبحة في أيديهم"³⁶⁹، أما عن عددها فقد اختلفت المصادر في الإحصاءات وذلك على حسب كلّ عصر وفترة، حيث يذكر فونتير دي بارادي الذي زار الجزائر العاصمة بين سنتي 1788-1790م "أن الجزائر العاصمة بها اثنا عشر

³⁶⁵Robert Lambert Playfair . Handbook for Travellers in Algeria and Tunis, Algiers, Oran, Constantine, Carthage, Etc. J. Murray, 1887, p.90.

³⁶⁶Paradis Venture De, op.cit, p157.

³⁶⁷ Article of Peace and Commerce between the most serene mighty Prince Charles 2, by the grace of God King of Great Britain, France and Ireland, defender of the faith, and the most illustrious Lords, The Bashaw, Dey, Aga, and Governours of the famous City and Kingdom of Algiers in Barbary: concluded by Arthur Herbert, Esquire, Admiral of his Majesties Fleet in The Mediterranean seas: on the Tenth of April, Old Stile, 1682, Printed by John Bill, Henry Hills, Thomas Newcomb, London, 1682.

³⁶⁸John Foss, op.cit, p43.

³⁶⁹ Davies, op.cit, p13.

جامعا كبيرا والعديد من المساجد الصغيرة³⁷⁰، أما جون فوس الذي كان أسيرا بالمدينة خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1793-1795م، فيذكر "أن عددها قد بلغ خمسة وستين مسجدا"³⁷¹، في حين يذهب دوفو "إلى أن عدد المساجد في الجزائر العاصمة قد بلغ إثنا عشر مسجدا كبيرا ومائة وتسعة مساجد صغيرة سنة 1830م، وتناقص عددها سنة 1862م ليصبح تسعة مساجد كبرى وتسعة عشر مسجدا صغيرا"³⁷².

وأما فيما يخص التنظيم العام لهذه المساجد، فإن من عادات الجزائريين "رفع العلم الأبيض وقت صلاة الظهر، ثم العلم الأخضر إيذانا بدخول وقت صلاة العصر، ويسمونه بانتييرا نيفا أي ساعة نشر علم السفينة، وفي المساء فانتيير أباسا أي ساعة طي العلم"³⁷³. وفي المقابل تعتبر الزاوية أقدس حتى من المسجد؛ خاصة بالنسبة لأتباع الطائفة الصوفية، ولما كان العثمانيون قد أسسوا إمبراطوريتهم على الطريقة الشاذلية الصوفية؛ فإنهم عاملوا الطرق الصوفية وزواياهم بعين الاحترام والريبة في نفس الوقت، "فجعلوا الزاوية مكانا مقدّسا هو آمن من دخلها"، ويذكر جون فوس بقوله: "يقرّ المجرم الجزائري إلى مسجد المرابط -الزاوية-، حيث يلتقي هناك المفتي فيعلمه عن وضعيته القانونية، ليقوم الأخير بإعلام الداي عن وجود مجرم في زاويته، فيرسل الداي بدوره مسبحة إلى المفتي كرمزية عن العفو وهكذا يطلق سراح المجرم، وعلى الرغم من أن الأخير يمكنه أن يخرج من المسجد طواعية؛ إلا أنّ خروجه دون وصول المسبحة يعني أنه معرّض للعقوبة"³⁷⁴.

³⁷⁰Paradis Venture De, op.cit, p157.

³⁷¹Foss John, op.cit, p45.

³⁷²DevoulxA, Les edifices religieux de l'ancien Alger, Bastide, Alger, 1870, p3.

³⁷³هابنسترايت، مصدر سابق، ص38.

³⁷⁴Foss John, op.cit, p47.

وقدّمت لنا الإحصاءات انتشار عدد هائل من الزوايا عبر جميع ربوع الجزائر خلال العهد العثماني، فأحصى دوفو "إثنا عشر زاوية وإثتان وثلاثون ضريحا بالجزائر العاصمة سنة 1830م، غير أن هذا الرقم قد تناقص بشكل جليّ سنة 1862م فأصبح عددها خمسة زوايا وخمسة عشر ضريحا".³⁷⁵

وفي الأخير فإن ما نستشفه من هذه المحاضرة هو أن ظهور طبقة من الحكام الجهلة الأميين أدى إلى إهمال الجانب الاقتصادي والعلمي حيث انشغل أغلبهم بجمع المال معتمدين على العائدات البحرية والجبائية، في حين أوكلت مهمة التجارة الخارجية لليهود والفرنسيين حتى عاثوا في البلد فسادا.

لقد كان الكثير من الحكام أعداء للعلماء "وقد بلغ ببعضهم الحمق إلى الأقدام على قتل الكثير منهم"، وفي مقابل هذا الإهمال برز العلماء كفتة موازية للسلطات الحاكمة سدّت الفراغ الحاصل، حيث لعب العديد منهم أدوارا مهمة في مجالات متعددة مثل التعليم والقضاء على الطريقة المالكية وحلّ الخلافات بين القبائل المتناحرة وغيرها من القضايا التي أوكلت لهم؛ كما تمكن العلماء من الحفاظ على المرجعية الدينية الإسلامية للأمة الجزائرية، واستمروا في الدفاع عن هذه الهوية خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية.

غير أن هذه العداوة لم تمنع من ظهور بعض الحكام الذين اهتموا بالعلماء وراعوا شؤونهم، مثل الداوي محمد بكداش وعثمان باي الكبير محرر وهران سنة 1792م.

³⁷⁵Devoulx, op.cit, p03.

الخاتمة

الخاتمة

الخاتمة

لقد خلصنا في نهاية هذه المطبوعة إلى مجموعة استنتاجات جاءت كالآتي:

- شهد الحكم العثماني في الجزائر أربعة مراحل هي: هي مرحلة البايبربايات 1519-1587م، ومرحلة الباشاوات 1587-1659م، ومرحلة الأغوات 1659-1671م، وأخيرا مرحلة الدايات التي امتدت بين سنتي 1671-1830م.

- استطاعت الأقلية الحاكمة المشكّلة من الأتراك والأعلاج المهتدون من السيطرة على الحكم طيلة ثلاثة قرون كاملة، وذلك بداية من سنة 1519م وإلى غاية سنة 1830م.

- شهدت المرحلة الأخيرة من الحكم العثماني في الجزائر انفلاتا فادحا أدى إلى انتشار الفوضى والاعتقالات في أواسط الحكام، حتى قيل أنّ "انقلابا حدث سنة 1732م أدى إلى وفاة ستّة دايات في يوم واحد".

- لما كانت الأقلية الحاكمة في غالبها أعجمية اللسان، فإنّها فسحت المجال للعلماء والفقهاء والقضاة من أهل الجزائر ليكونوا وسطاء بين السلطة والعامّة.

- قام نظام التعليم خلال العهد العثماني على الوقف ما أدّى إلى غياب سياسة تعليمية تابعة للدولة وقائمة على مناهج ومقررات دراسية حقيقية.

- دافع الأتراك بشراسة عن الجزائر ضد الهجمات الأوربية التي مسّت البلد طيلة التواجد العثماني في الجزائر 1519-1830م، غير أنّ علاقاتهم بالعامّة كانت في أغلب الوقت متوترة خاصة إذا علمنا أنّ هذه العلاقة قد قامت على "الجباية"، ما أدى إلى نشوب الثورات بشكل لم ينقطع طيلة فترة الحكم العثماني في الجزائر، ومن هذه الثورات التي أثّرت على السلطة الجزائرية: ثورة ابن الصخري سنة 1637م وثورة الكراغلة سنة 1633م، وثورة الدرقاوي وابن الأحرش والتيجاني مطلع القرن التاسع عشر.

الخاتمة

- لقد تميّزت العلاقات الجزائرية الأوربية بالفنور تارة والاتزان تارة أخرى، فأقيمت المعاهدات والاتفاقات بين الفريقين حتى أن الفترة الممتدة بين سنتي 1686-1770م قد شهدت استقرارا تاما، باستثناء الحملة الاحتلالية الاسبانية على وهران سنة 1732م.

وفي المقابل قاد الأوربيون عدّة حملات بحرية على الجزائر كان البعض منها ذا دمار هائل على البلد وتحصيناتها، ولعلّ أهم هذه الحملات هي: حملة شارلكان على الجزائر سنة 1541م، والحملة الانجليزية سنة 1620م، ثم الهولندية سنة 1661م، فالحملات الفرنسية المتتالية لسنوات 1682م و1683 و1686م، فالحملة الدنماركية سنة 1770م ثم الحملات الاسبانية سنوات 1775م، 1782م، 1783م، وأخيرا الحملة الانجليزية سنة 1816م.

- إنّ حملة اللورد إكسموث سنة 1816م كانت القشة التي قسمت ظهر البعير وأردته قتيلا، حيث أنّ الخراب الذي خلّفته جعل من المستحيل أن تقوم للجزائر قائمة بعدها، وما يثبت ضعف تحصينات ومعنونات السلطة هو قدرة الانجليز أنفسهم فرض حصار على الساحل الجزائري بسفينة واحدة من نوع السفن العالية سنة 1824م.

- في الوقت الذي تقدّمت في الدول الأوربية؛ وبخاصة فرنسا وإنجلترا خطوات كبيرة في مجال التصنيع العسكري، كان الأسطول الجزائري لا يزال حتى أوائل القرن التاسع عشر يعتمد اعتماد شبه كليّ على سفن من نوع الغراب والشبّاك والغليوطة، وهي في الحقيقة سفن كان يستخدمها الأوربيون خلال هذه الفترة في صيد الأسماك.

- كان الفساد الذي ضرب جميع أركان السلطة وبروز القبيلة ونعراتها مفتتا للمدينة وبخاصّة في المناطق البعيدة عن مراكز السلطة التركية والمدن الكبرى، فأدى اجتماع كلّ هذه الأزمات في الأخير إلى سقوط الجزائر بيد الفرنسيين سنة 1830م.

قائمة الملاحق

قائمة الملاحق

قائمة الملاحق

الملحق 01: منظر من البحر للحملة الاسبانية على الجزائر سنة 1541م.



المصدر: Anonymous, "Le Commerce des Captifs" Wolfgang Kaiser, 17TH Cent.

قائمة الملاحق

الملحق 02: حملة افتداء تعود لمنظمة الرحمة الفرنسية سنة 1662م 1667م.



المصدر: Anonymous, "Le Commerce des Captifs" Wolfgang Kaiser, 17TH Cent.

قائمة الملاحق

الملحق 03: لقاء مبعوث اللورد إكسموث قائد الحملة الانجليزية مع الداى عمر سنة 1816م.



المصدر: Salame Abraham, Narrative of The Expedition To Algiers In The Year 1810, Under the Command of the Right Box Admiral Lord Viscount Exmouth, London: John Murhay, Albemarle-Street, 1819, p83.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

1- العربية:

- أسنهور عبد الحميد بن، دخول الأتراك العثمانيون إلى الجزائر، المطبعة الشعبية، الجزائر.
- أتر عزيز سامح، الأتراك في إفريقيا الشمالية، تر. محمد علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1999م.
- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، المطبعة العربية، الجزائر، 1955م.
- الزهار أحمد الشريف، الجزائر مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، تح. أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت، 1974م.
- الزياني أحمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح. محمد العبدلي، الجزائر: عالم المعرفة، 2012م.
- شويتام أرزقي، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2011م.
- السباعي مصطفى، من روائع حضارتنا، دار الوراق، بيروت، 1999م.
- العقبي صلاح مؤيد، الطرق الصوفية و الزوايا في الجزائر، دار البصائر، 2001م.
- العنتري صالح، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة، تح. يحيى بوعزيز، الجزائر، عالم المعرفة، 2009.
- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1968م.
- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، قسنطينة.

قائمة المصادر والمراجع

- المزمري بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا....، تح. يحيى بوعزيز، ج01، دار الغرب الإسلامي.
- المفتي حسين ابن، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشاوات الجزائر وعلمائها، تح: فارس كعون، بيت الحكمة، الجزائر، 2009م.
- الملي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية الجزائر، 1964م.
- الورتيلاني الحسين، الرحلة الورتيلانية، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ج01، تع. ابن مهنا القسنطيني، دار المعرفة الدولية، الجزائر، 2006م.
- آيت حبوش حميد، الكراغلة ودورهم السياسي في الجزائر العثمانية، مجلة القرطاس، ع.02، جامعة تلمسان، جانفي 2015م.
- بربروس خير الدين، مذكرات خير الدين بربروس، تر. محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.
- بلبراوات بن عتو، التحرير الثاني والنهائي لوهران والمرسى الكبير عام 1792م، مجلة عصور، ع.04 و05، جامعة وهران، 2003م.
- بلغيث عبد القادر، الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة وهران، 2014م.
- بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.

قائمة المصادر والمراجع

- بوزيان الدراجي، عبد الرحمن الأخضر، العالم الصوفي الذي تفوق في عصره، وزارة الثقافة، الجزائر، 2009م.
- بيات فاضل، الدولة العثمانية في المجال العربي...، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م.
- توتة إسماعيل، الممارسة الدينية في الجزائر العثمانية من خلال الكتابات الأجنبية، ملتقى تاريخ الجزائر الديني في العهد العثماني، مخبر دراسات الفكر الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس، 07/06 مارس 2018م.
- جودي زكريا، الحملة الفرنسية على مدينة جيجل سنة 1664م، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، م.03، ع.01، جانفي 2021م.
- حرب أديب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847، ج1، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2004م.
- حموش مصطفى ابن، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني، دار الأمة، الجزائر، 2007م.
- خليفي عبد القادر، احتفالية المولد النبوي الشريف في الجزائر، مجلة العلوم الانسانية، ع.10، جامعة وهران، جانفي/جوان 2016م.
- دباب زهرية، وردة برويس، السياسة التعليمية في الجزائر في العهد العثماني قراءة سوسيو تاريخية، م.21، ع.01، 2021م.
- دخية فاطمة، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني - أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، قسم الآداب واللغة العربية، جامعة بسكرة، الجزائر، 1996/1995م.

قائمة المصادر والمراجع

- دهان سليمان، " تنظيم ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني "، مجلة أفكار وآفاق، ع.2، جامعة الجزائر، 2017م.
- دوالي خديجة، الغزو الاسباني على السواحل الجزائرية (911-917هـ/1505-1511م)، مجلة القرطاس، ع.06، جوان 2017م.
- رأس الناصري محمد بن أحمد أبي، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، تر. محمد غانم، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005م.
- سبنسر ويليام، الجزائر في عهد رياس البحر، تر. عبد القادر زيادية، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2006م.
- سعد الله أبو القاسم، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج01، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998م.
- شالر وليام، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تر. اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
- صابري محمد، فرح لخميسي، دراسة سوسيو تاريخية لعادات وتقاليد المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، م.07، جامعة الجلفة، الجزائر، ديمبر 2022م.
- صنديد ياسين، الأسرة الحسينية ودورها في العلاقات السياسية الاقتصادية بين تونس وفرنسا، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة غرداية، 2012م.

قائمة المصادر والمراجع

- طوبال نجوى، الزواج وواقع المصاهرات بمجتمع مدينة الجزائر -الفترة العثمانية-، ج01، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 02، 2013-2014م.
- عبد الحميد بن أسنهور، دخول الأتراك العثمانيون إلى الجزائر، المطبعة الشعبية، الجزائر، د.ت.
- عبد الكريم شوقي، تطور الوضع السياسي والعسكري بالجزائر في عهد الباشوات 1587-1659م، الحوار المتوسطي، سبتمبر 2022.
- فلة موساوي القشاعي، وباء الطاعون في الجزائر العثمانية، دوراته وسلم حدّته وطرق انتقاله، دراسات إنسانية.
- قرباش بلقاسم، اعتناق الاسلام في الجزائر خلال القرن 16م، ملتقى دولي: البحر الأبيض المتوسط، مجال التنافس بين المسيحية والاسلام عبر التاريخ، جامعة بريكة، الجزائر، 22/21 فيفري 2023م.
- قرباش بلقاسم، اعتناق الإسلام في الجزائر خلال القرن 17م، ملتقى دولي، جامعة بريكة، 2023م.
- قرباش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد الدايات 1671-1830م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2016-2017.
- كورين شوفالبيه، الثلاثين سنة الأولى من قيام مدينة الجزائر، تر. جمال حمادة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007م.
- لحرش نفيسة، تطور لباس المرأة الجزائرية، تق: عبد الحميد بورايو، ط2، دار الأنوثة للنشر، الجزائر، 2007م.

قائمة المصادر والمراجع

- ماخوفسكي ياتسيك، تاريخ القرصنة في العالم، تر.أنور محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008م.
- مجهول المؤلف، غزوات عروج وخير الدين، تح. نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934.
- محرز أمين، الجزائر في عهد الأغوات 1659-1671م، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة الجزائر، 2007-2008م.
- مروش المنور، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني "القرصنة، الواقع، الأساطير"، ج2، دار القصة للنشر والتوزيع، الجزائر ، 2009م.
- مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر، تح. رابح بونار، ش. و. ن.ت، الجزائر، 1974م.
- مورو محمد، بعد 500 سنة من سقوط الأندلس الجزائر تعود لمحمد صلى الله عليه وسلم، المختار الإسلامي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1992م.
- ميمون [بن] الجزائري محمد، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح. محمد بن عبد الكريم الجزائري، وزارة الثقافة الجزائرية، 2007.
- هابنسترايت ج، رحلة العالم الألماني إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م، تر.ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الاسلامي، تونس، الطبعة الاولى، 2008م.
- هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في غربي شمال أفريقيا، ج 1 ، تر. أبو العيد دودو، دار الأمة، الجزائر، 2008م.

-2- التأسيسية:

- Abdessemed-Foufa Amina; Djillali Benouar, "Investigation of the 1716 Algiers (Algeria) earthquake from historical sources", International Journal of Architectural Heritage. Vol.04, 2008.
- Abitbol Michel, The Jews of North Africa During the Second World War, Detroit: Wayne University State Press, 1989.
- Additional Article between Great Britain and Algiers, signed at Algiers, 10 August 1701.
- Alan G. Jamieson, Lords of Sea, a History of the Barbary Corsairs, London:reaktion books ltd, 2012.
- Articles of peace between His Most Sacred Majesty, Charles the Second, King of Great Britain, France and Ireland, &c. and the city and kingdom of Algiers, concluded by Thomas Allen Esquire, Admiral of His said Majesty of Great Britain's ships in the Mediterranean Seas, according to instructions received on that behalf from His Royal Highness the Duke of York and Albany, Earl of Ulster ... ; Being the same articles concluded by Sir John Lawson Knight, on the 23. of April, 1662. and afterwards more solemnly confirm'd on the 10. of November following, and since ratified by the Grand Signior, Edinburgh, : Re-printed in the year, 1664.
- Baghdiantz-MacCabe Ina , Orientalism in Early Modern France: Eurasian Trade, Exoticism, and the Ancien Régime, New-York, Berg, 2008.
- Baumber M., General at Sea: Robert Blake and the 17th-Century Revolution in Naval Warfare, 1972.
- Bekkaoui Khalid, White Women Captives in North Africa, Narratives of Enslavement, 1735-1830, UK: Palgrave Macmillan, 2010.
- Bloch Issac, Inscriptions Tumulaires, Paris, 1888.
- Booy David, Francis Knight, On Being a Galley Slave, Routledge, 2002.
- Boronat Pascual, Borrachina, Los Moriscos Españoles y su Expulsión, Vol.02, Valencia: Real Colegio de Corpus Christi, 1901.

- Boyer Pierre, "Le problème Kouloughli dans la régence d'Alger", Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N.8, 1970.
- Boyer Pierre. La révolution dite des "Aghas" dans la régence d'Alger (1659-1671). In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°13-14, 1973.
- Brooks Francis, Barbarian Cruelty, Being A TrueHistory of the Distressed Condition of the Christian Captives under the Tyranny of MullyIshmaelEmperor of Morocco, and King of Fez and Macqueness in Barbary, In whichislikewisegiven a particularAccount of hislate Wars with the Algerines..., London:Printed for J. Salusbury at the Rising-Sun in Cornhil, and H. Markman at the King's Arms in the Poultry, 1693.
- Bülent Ari, Levent Kirval, Four Centuries Of Diplomatic And Economic Relations Between Turkey And The Netherlands (1612-2012), Panteia Press, 2014.
- Card E. Rouard De, Traités de la France Avec les pays De l'Afrique du Nord Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc, Paris, 1906, p22.
- Charles-Roux, F. France et Afrique du Nord avant 1830, Librairie Félix Alcan, Paris, 1932.
- Chitty Joseph. A Treatise on the Laws of Commerce and Manufactures and the ContractsRelatingThereto:With an Appendix of Theaties, Statutes and Precedents. Vol. 4. Butterworth, 1824.
- Clercq Maurice le, Le Tombeau des Cinq Deys d'Alger, Légende Algérienne, Imprimerie Daix Frère, 1888.
- Clowes William Laird, The royal Navy, A HistoryFrom the Earliest Times to the Present, Vol.2, London: Sampson Low, Marston and Company, 1898.
- Coleman James," The Barbary Corsairs in Ireland", The Journal of the Royal Society of Antiquaries of Ireland, Fifth Series, Vol.01, N.02, 1890.
- Coolidge Archibald Cary, The European Reconquest of North Africa, Te American Historical Review , Jul., 1912, Vol. 17, No. 4 (Jul., 1912).
- Corbett Jullian S., England in The Mediterranean, Voll (2Vol), 2nd Ed, London:Longmans, Greend and Co 1916.

- Cour Auguste, L'établissement des dynasties des chérifs au Maroc: et leur rivalité avec les turcs de la régence d'Alger, 1509-1830, Ernest Leroux, 1904.
- Dan H. Andersen, Hans-Joachim Voth, The Grapes of War: Neutrality and Mediterranean Shipping Under The Danish Flag, 1750-1807, Discussion Papers in Economic and Social History, N° 18, Sept. 1997.
- Dan Pierre, Histoire De Barbarie, Et De Ses Corsaires. Des Royavmes, Et Des Villes D'alger, De Tvnis, De Salé, & De Tripoly, Ed.02, Paris, Imprimeur & Libraire ordinaire du Roy, 1649.
- Davenport Frances Gardiner, European Treaties bearing on the History of the United States and its Dependencies to 1648 , Washington, Institution of Washington, 1917.
- Davenport Frances Gardiner, European Treaties bearing on the History of the United States and its Dependencies to 1648 , Washington, Institution of Washington, 1917.
- Davis Robert, Esclaves Chrétiens, Maitres Musulmans, L'esclave Blanc en Méditerranée 1600-1800, Tr. Manuel Tricoteau, p.aris: Ed. Jacqueline Chambon, 2006.
- Devis Robert. C., Cristian slave, Muslum masters, White slavery in the Mediterranean, the Barbary coast and Italy, Palgrave Macmillan, 2003.
- Devoulx A, -Les edifices religieux de l'ancien Alger, Bastide, Alger, 1870.
- Devoulx Albert, Relevé des principaux français ont résidé à Alger de 1686-1830, Revue africaine, 1871, p378.
- Dreadnought H.M.S., The Royal Navy, London: Adam And Charles Black, 1907, p236-37.
- Emerich John Edward et Alt, The Cambridge Modern History, Vol.3, Cambridge, The University Press, 1907.
- Ervin Marita, Coffee and the Ottoman Social Sphere, University of Puget Sound, 2014.
- Fannin Samuel, "Alexander "Bloody" O'reilly a Monster of Fortune", History Ireland, Autumn 2001.

قائمة المصادر والمراجع

- Fery Henri-Leone, Histoire d'Oran, Avant, Pendant Et Après La Domination Espagnole, Oran, Typographie Adolphe Perrier Éditeur, 1858.
- Filali Kamel, L'Algérie mystique : Des marabouts fondateurs aux khwân insurgés, XVe-XIXe siècles, Paris, Publisud, coll. « Espaces méditerranéens », 2002.
- Friedman Ellen G., "North African Piracy on the Coasts of Spain in the seventeenth Century: A New Perspective on the Expulsion of the Moriscos", The International History Review, Vol.01, No.01, Jan 1979.
- Friedman Ellen G., "The Exercise of Religion by Spanish Captives in North Africa", Sixteen Century Journal, Vol 1, N°1, Apr 1975.
- GALIBERT Léon, L'Algérie, ancienne et moderne depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours: comprenant le bombardement de Tanger, la prise de Mogador, la bataille d'Isly, et le glorieux combat de Djemma-Gazouat. Furne, 1846.
- Gardiner Samuel Rawson. Prince Charles and the Spanish Marriage (1617-1623): A Chapter of English History, Vol. 2, Hurst a. Blackett, 1869.
- Gentleman's Magazine and Historical Review, T.53, F. Jefferies, 1783.
- Gerald Maclean, Nabil Matar, Britain and The Islamic World, 1558–1713, New York: Oxford University Press, 2011.
- Gheziel Abla, "Captifs et captivité dans la régence d'Alger (xviie- début xixe siècle)", Cahiers de la Méditerranée, 87, 2013.
- Gobel Erik, "The Danish-Algerian Sea Passes, 1747-1838: An Example of Extraterritorial Production if Human Security", Historical Social Research, Vol.35, N.04, 2010.
- Gobel Erik, "The Danish-Algerian Sea Passes, 1747-1838: An Example of Extraterritorial Production if Human Security", Historical Social Research, Vol.35, N.04, 2010.
- Gorguos, A, « Notice sur le Bey d'Oran, Mohammed el Kebir. Revue africaine| Bulletin de la Société historique algérienne, R.A, N.05, 1857.
- Grammont H.D, quel est le lieu de la mort d'Aroudj Barberousse, Revue Africain, n22, 1877.

قائمة المصادر والمراجع

- Groot Alexander H. de, "Ottoman North Africa and the Dutch Republic in the seventeenth and eighteenth centuries", Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N.39, 1985.
- Groot De Alexander.H. Ottoman North Africa and the Dutch Republic in the seventeenth and eighteenth centuries, Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°39, 1985.
- Haedo Fray Diego de , Topographie et Histoire générale d'Alger, Trd. Mounreaut, Berbrugger 1870.
- Haedo Fray Diego de , Topographie et Histoire générale d'Alger, Trd. Mounreaut, Berbrugger 1870.
- Haedo Fray Diego De, Histoire des Rois d'Alger, Traduire par H.D. De Grammont, Adolphe Jordan, Alger,1881.
- Haedo Fray Diego De, Histoire des Rois d'Alger, Traduire par H.D. De Grammont, Adolphe Jordan, Alger,1881.
- Haedo, topographie et histoire générale d'alger, traduit, de l'espagnol par, Monnerau, et Berbrugger, imprimé, valladolid, 1870.
- Hamadache Ouali, Le commerce Intérieur de L'Algérie à l'Epoque Ottoman (1519-1830), Ville d'Alger comme exemple, AL HIWAR AL MOUTAWASSITI , Vol.13 (n°2), Sept 2022.
- Hartel, H et alt, The Last Great Muslim Empires, BRILL, 1997.
- Hume Martin Andrew Sharp, Spain: Its Greatness and Decay (1479-1788), University Press, 1899.
- Jamieson Alan G., Lords of Sea, a History of the Barbary Corsairs, London: reaktion books ltd, 2012.
- Jamieson Alan G., Lords of the Sea A History of the Barbary Corsairs. Reaktion Books, 2003.
- Jamil De M et Alt, A History of the Maghrib in the Islamic Period, Cambridge University Press,1987.
- Jean Scholastique Pitton, Histoire De La Ville D'Aix, Capitale De La Provence ..., Charles David Imprimeur du Roy, 1666.

قائمة المصادر والمراجع

- Jewish Social Studies, Vol. 14, 1952.
- Jullian S. Corbett, England in The Mediterranean, 2Vol (Vol 2), 2nd Ed, London: Longmans, Greend and Co 1916.
- Kaddache Mahfoud, L'Algérie durant la période ottomane, Office des publications universitaires, Alger, 1998.
- Kuran E, la Lettre de d'ernier Dey d'Alger au Grand Vizir de Lempire Ottoman, R.A, n96, Alger, 1952.
- Lane -Poole Stanley, The Story of the Barbary corsairs, New York: G.P Putnam's Sons, 1890.
- Maameri Fatima, Ottoman Algeria in Western Diplomatic History with Particular Emphasis on Relations with the United States of America, 1776-1816, the Faculty of Letters and Languages: A Thesis for the Degree of Doctorat d'Etat, 2008.
- Magnus Ressel, The North European way of Ransoming: Explorations into an Unknown Dimension of The Early Modern Welfare State, Historical Social Research, Vol35, N°4, 2010.
- Maroc-Algérie: analyses croisées d'un voisinage hostile, Karthala, 2011.
- Marruy Theresa D., op.cit, p16. 2 James Coleman," The Barbary Corsairs in Ireland", The Journal of the Royal Society of Antiquaries of Ireland, Fifth Series, Vol.01, N.02, 1890.
- Martin Maria, History of the captivity and sufferings of Msr. Maria Martin, Boston, Printed for W.Crary, 1807.
- Matar Nabil, British Captives from the Mediterranean to the Atlantic, 1563-1760, Brill, 2014.
- Mathew Carey, A short account of Algiers, and of its several wars against Spain, France, England, Holland, Venice, and other powers of Europe, from the usurpation of Barbarossa and the invasion of the Emperor Charles V. to the present time, Pennsylvania, 1794.
- Mattei A, protestation contre détracteur du système administratif suivi actuellement en Algérie, Paris, E. DenniLibraire éditeur, 1869. J.J.E.Ray, Histoire

de l'Algérie (depuis les temps les plus anciens jusqu'à nous jours), tours, Ad Maure Cie, 1859.

- Mattei A., protestation contre détracteur du système administratif suivi actuellement en Algérie, Paris, E. Denni Libraire éditeur, 1869, p23

- Meloy, J. L, Imperial power and Maritime Trade: Mecca and Cairo in the later Middle Ages, e Middle East Documentation Center, University of Chicago, 2010.

- Mercier Ernest, Histoire de l'Afrique septentrionale (Berberie) depuis les temps les plus recules, jusqu'à la conquête française (1830), T2, Paris, Ernest Lourex éditeur, 1868.

- Muller Leos, "Swedish Shipping in Southern Europe and Peace Treaties with North African States: An Economic Security Perspective", Historical Social Research Vol35, N°4, 2010.

- Norman Housley, Religious warfare in Europe, 1400-1536, New York: Oxford University Press 2002.

- Œuvres de Louis XIV: Lettres particulières, Vol. 05, Paris: 1806.

- Ostlund Joachim, Swedes in Barbary Captivity: The Political Culture of Human Security, Historical Social Research, Vol35, N°4, 2010.

- Panzac Daniel, Barbary Corsairs, The End of a Legend 1800-1820, Tr. Victoria Hobson, LEIDEN: Brill, 200.

- Panzac Daniel, Barbary Corsairs, The End of a Legend 1800-1820, Tr. Victoria Hobson, LEIDEN: Brill, 2005.

- Pinkerton John, A general collection of the best and most interesting voyages and travels in all parts of the world: many of which are now first translated into English ; digested on a new plan. London: Longman.

- Playfair Robert Lambert, Handbook for Travellers in Algeria and Tunis, Algiers, Oran, Constantine, Carthage, Etc. J. Murray, 1887

- Playfair, Robert Lambert, The scourge of Christendom: annals of British relations with Algiers prior to the French conquest, Smith, Elder & Company, 1884.

- Quesada Ladero, Miguel Ángel, Las Indias de Castilla en sus primeros años: cuentas de la Casa de Contratación (1503-1521), Dykinson, 2008

- RAMIRO JESÚS BERMÚDEZ, Modulaciones rítmicas en la lírica latina. Las Odas de Horacio. Madrid: Ediciones Clásicas, 2007,
- Ray J.J.E., Histoire de l'Algérie (depuis les temps les plus anciens jusqu'à nous jours), tours,Ad Maure, 1859.
- Report of the Royal Commission on Historical Manuscripts, H.M. Stationery Office, 1906, P327.
- Salamé Abraham, Narrative of the Expedition to Algiers in the Year 1810, Under the Command of the Right Box Admiral Lord Viscount Exmouth, London: John Murhay, Albemarle-Street, 1819.
- Schuyler Eugene, American Diplomacy and Furtherance of Commerce, New-York: Charles Scribner's Sons, 1895.
- Shaw Thomas, Travels, Or Observations Relating to Several Parts of Barbary and the Levant: Illustrated, London, 1757.
- Stella Alessandra, Histoires d'esclaves dans la Péninsule Ibérique, Paris: Édition de l'École des Hautes Etudes en Sciences Sociales, 2000.
- Stewart William. Admirals of the World: a Biographical Dictionary, 1500 to the present. McFarland 2009.
- Tal Shuval, La ville d'Alger vers la fin du XVIIIe siècle: population et cadre urbain, Diss. Aix-Marseille 1, 1994.
- Tassy Laugier De, Histoire de Royaume d'Alger Avec l'État présent de son gouvernement, de ses forces de terre et de mer & de ses Revenus, Police, Justice Politique & commerce, Amesterdam, Henri du Sauzet, 1837.
- Terki Ismet Hassaine, « Oran au xviiiie siècle : du désarroi à la clairvoyance politique de l'Espagne », Insaniyat, N.23-24,2004.
- The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Volume I: A–B. Leiden: E. J. Brill.
- Tinniswood Adrian, Pirates of Barbary, Corsairs, Conquests, and Captivity in The Seventeen-century Mediterranean, New-York: The Penguin Group, 2010.
- Tinniswood Adrian, pirates of Barbary, Corsairs, Conquests, and Captivity in The Seventeen-century Mediterranean, New-York: The Penguin Group, 2010.

قائمة المصادر والمراجع

- Vella Andrew P, "The Order of Malta and the defence of Tripoli 1530–1551", *Melita Historica*, Vol. 6, N. 4, 1975.
- VENTURE DE Paradise, *Alger au 18eme siècle*, Fagnan, Alger, 1898.
- Walsin Esterhazy, *de la domination Turque dans la régence Alger*, Paris, libraire de Charles Cosselin, 1847.
- Wilson Stevens James, *An Historical and Geographical Account of Algiers*. Philadelphia: Hoagan&M'Elroy,1797.

الفهرس العام

الفهرس العام

الفهرس العام

03	مقدمة
07	المحاضرة الأولى: الغزو الإيبيري للمغرب العربي أواخر القرن 15م ومطلع القرن 16م.
20	المحاضرة الثانية: إحاق الجزائر بالدولة العثمانية 1510-1519م.
34	المحاضرة الثالثة: عهد البايلربايات 1519-1587م
52	المحاضرة الرابعة: عهد الباشوات 1587-1659م
75	المحاضرة الخامسة: عهد الأغوات 1659-1671م
92	المحاضرة السادسة: عهد الدايات 1671-1830م.
120	المحاضرة السابعة: المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني 1519-1830م.
137	المحاضرة الثامنة: الاقتصاد والتعليم في الجزائر 1591-1830م
156	الخاتمة
159	قائمة الملاحق
163	قائمة المصادر والمراجع

